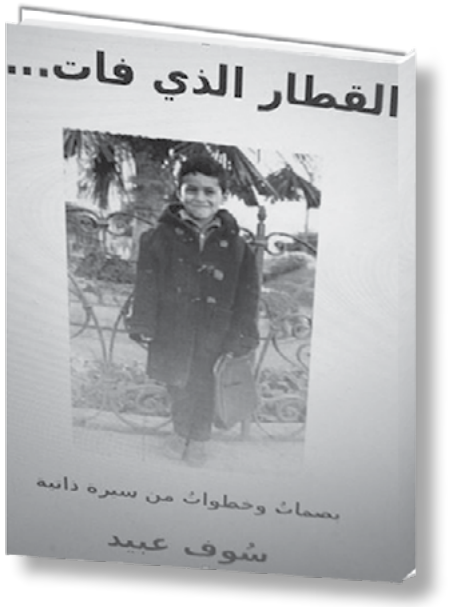

القطار الذي فات...
بصماتٌ وخطواتٌ من سيرة ذاتية
2016

إلى ليلى
شكرا واعتذارا

بئر الكرمة

منذُ عهد قديم كانت الصِّلات مُستمرّةً وثيقة بين أهالي الجنوب التونسيّ والعاصمة وهي مُوَثّقَةٌ منذ العهد الحفصيّ على الأقل وحدثني عمّي الأكبر أنه أدرك دكانَ جدّه قُرب جامع الزّيتونة عند بداية نهج ـ تُربة الباي ـ وكان أوّل مَحط رحاله من غمراسن عندما قَدِم إلى تونس العاصمة مع جدّته طفلا وقد كانت رحلتُه على متن عربة ,وذكر لي عمّي أنّ أربعةً من الخيل كانت تتناوب في كل مدينة فسارت بحثيث السّير يومين وليلةً, وبتطوّر وسائل النّقل أضحت الرحلة العاديةُ تدوم يوما كاملا أو ليلة بتمامها. كانت العائلة الكبرى تجتمع مع بقيّة الأقارب في الحُوش ليلةَ السّفر لتوديع المسافر قُبيل المغرب فيخيّم حُزن ثقيل يحاولون إخفاءه بالدّعاء ـ بين الحين والحين ـ أن تكون الرّحلةُ سالمة والسّفرةُ ميمونةً والعودة كاسبة غانمة...ويحمل بعضُ المُودّعين السّويق والقديد زادًا للمُسافر والبعض يُسلمه رسالة أو صُرّةً ويُوصيهِ ببعض الأمور فلا بريدٌ ولا هاتفٌ ولا أنترناتٌ في ذلك العهد ببادیةِ ـ بئر الكرمة ـ حيث عاش

الأهلُ مثل غيرهم من هجرة الرّجال جيلا بعد جيل. عند عودة أحدهم ـ مرّة أو مرّتين في السّنة ـ يجتمع الأقارب في حُوش العائلة المنحوت غارًا بجانب غار في سَفح هَضبة تُطل على أشجار الزّياتين والتّين المغروسة في جَنبات الوادي حيث بئر الكرمة فيتربّع ذلك العائد مُبتهجا على إهابِ خروف وحصير ويجلس إلى جانبه أكبرُ رجال العائلة الواحد بجانب الآخر بحسب الأعمار وقد تتصدّر المجلسَ الجدّةُ أو العمّةُ العجوز إذا كانت أكبر الحاضرين فهي التي تُشرف على توزيع كؤوس الشّاي الأخضر المُنعنع وهي التي تقوم بفتح الحقائب والأكياس وهي التي تُوزّع الهدايا وتُقسّم بالقِسط الحُمص المقليّ حفنةً حفنة على الحاضرين والغائبين مع حلوى الشاميّة, ويتنازل عادةً الرّجال عن نصيبهم لفائدتنا ـ نحن الصّبيان ـ فترانا نُبادر إلى الحلوى فنجعل من قراطيسِها أوراقا نقديةً نطويها بعناية ثم ندسّها في جيوبنا.

ما أجملَ ذلك الزّمن ـ رغم شَظف عيشه ـ حيثُ عاشت فيه عائلتُنا الكبرى حول بئر الكرمة على الوئام والمحبّة في ما بينها وبعزّة وكرامة مع غيرها...ولكن هيهاتَ ! فقد توالت سنواتُ الجفاف وشحّت ينابيع البئر وتزاحمت فيه الحبال والدّلاء وطال حول حوضه الإنتظار إلى أن يبست أغصان التّين والزّيتون ووحده النّخل ظل أخضر شامخا فنزحنا إلى العاصمة عائلةً تِلوَ عائلة وتشتّتنا في شوارعها وأحيائها وضواحيها وعندما رحل الكبارُ إنقطعت العلاقات والمَودّات بيننا شيئا فشيئا حتّى أمسَى

البعضُ لا يعرف الآخر بل ونسي أو تناسَى بئرَ الكرمة فَما عادَ يُذكَرُ على الألسنة إلا نادرًا...وَاحَسْرَتَاه!

ـ ليلة السّفر

ليلةُ السّفر...ما أطولها من ليلةٍ تلك التي بِتُّ فيها إلى جانب أمّي في غار حُوشنا ببئر الكرمة مُنتظرًا الفجرَ وأزيز مُحرّك سيّارة الأجرة التي ستحملني إلى تونس للدّراسة حيث سأقيم لدى عائلة عمّي عبد الرحمان التي لم أكن أعرف منها أحدا إلا جدّتي فقد ذهبتُ إلى تونس في الرّابعة من عُمري للعلاج من رَمدٍ كاد يُتلف بصري لولا حرص والدي الذي عالجني لدى أمهر طبيب في تونس حيث أقمت بضعة أشهر لدى عائلة عمّه سيدي سالم بالقرب من حي باب الجديد.

رحماك يا أُميمة !

لكأنّ فراقك مكتوب على جبيني منذ صغري فنشأتُ على تجذّر الحنين إليك... حنينٌ ضرب عروقه عميقا في كياني باكرا... باكرًا في ذلك الفجر من خريف عام 1958 ركبت سيّارة الأجرة التي وقفت أمّي بعيدا عنها على إستحياء مُلتفّةً في مُلاءتها وبُخنقها وأذكر أنها دفعتني بشيء من الشدّة قائلة بهمس وقد لاحظت تعلقّي بها

ـ إذهبْ...لا تبكِ...الرّجال لا يبكون

ـ بل الرجال يبكون يا أمّي

وما أحرّ بكاءهم
يبكون في حُرقة وصمت
يبكون يا أمّي ... في كبرياء
رحماك يا أمي

لماذا لم تتركيني أضمّك عند ذلك الفجر وأزيز محرّك السيّارة يُفَرقع صمت المدى مع نباح الكلاب...لا شكّ أنك أردتِ أن لا أبدو أمام أعيُن الركاب طفلا مُدلّلا بل أحببتِ أن يروني رجلا شديد المِراس فقد أطعمتِني في عشاء تلك الليلة من كبدِ جَمل وقلب ذئب...لذلك ربّما وقتها، لم أبك و إليكِ لم ألتفت،لكنّي حملت مُحيّاك حيثُما حللتُ...

ليلةَ سَفره
كان في السّادسةِ
في العَشاء
نَاولتْهُ أُمُّهُ شِواءً مِنْ كبِدِ جَمَل
ومنْ قلبِ ذئبٍ
كيْ يَكونَ جَلَدًا صَبُورًا
فَطِنًا ذكيًّا
لمْ يبكِ عندَ الوداع في ذلكَ الفَجر
لمْ تَجرِ لهُ دَمعةٌ أبَدًا
جَرى ما جرى

رأى ما رأى
فَتحمّل الجَملُ ولا يومًا اِشتكى
إنّما لم تبدُ للذّئب مخالبُ
ولا أنيابٌ
تعلّم الصّبيُّ من الألف إلى الياء
غير أنّه ـ يَامَّا ـ
كانَ دائمًا
أوّلَ الأغْبياءْ

سيدي رزيق

لا أتذكّر الوقائعَ والمشاهد التي قطعتْ فيها سيّارةُ الأجرة المسافةَ من غُمراسن في أقصى الجنوب إلى ضاحية ـــ سيدي رزيق ـ فقد اِستغرقتُ في نوم عميق وعندما فتحتُ عيني رأيتُ فيلاتٍ ذاتَ حدائقَ غَنّاءٍ على جانبيْ طريق خالية من الحركة وكانت السيّارة تنعطف حينا وتتمهّل أحيانا ليسأل السّائق أحد المارّين فشعرت أنّني قاربت على الوصول. مازلتُ أتذكّر لحظة حيرتي وذهولي حينما نزلت أمام حديقة رأيت فيها أنواعا شتّى من الزهور والأشجار أبصرتُها لأول مرة فعرفت بعدئذ أنها الموز والإجاص والياسمين والبنفسج... فأين أنا من جنوب الجفاف الذي يُخيّم على القِفار حيثما جال البصر في مداه لولا بعض شجيرات التّين والزيتون والنخل هنا وهناك

أو في بطون الأودية ، شُجيرات تضرب جذورها عميقا وبعيدا بين مفاصل الصخور تتلمّس الثّرى فتستسقي بعروقها ما يتسنّى لها من رَشْح بقايا الغُدران التي تجود بها قطرات السّحب مرّة أو مرتين طيلة أعوام عِجاف ليس لها من رَواء إلا الصّبرُ والإنتظار. أصابني ساعتَها ، وأنا أتابع الإخضرار من زجاج النافذة ، ذهولٌ وإندهاش فقد إنتقلتُ بين فجر وغروبه من شَظف البداوة إلى تَرقّي الحضارة إذْ عندما نزلتُ وحطّت رجلي على الإسفلت اللامع النّظيف كِدت أخلع حذائي لأمشي حافيا كعادتنا في ربوع غُمراسن عندما نجلس على حصير أو زربية...وسِرتُ في ممشى مُعشّب بين صَفّين من بديع ألوان الزهور ...مَن أوصلني ؟ مَن إستقبلني ؟ كيف نِمتُ ؟ لا أتذكّر من كل ذلك شيئا.

أتذكّر فقط أنه من الغدِ وجدت نفسي أقف في الصفّ أنتظر الدخول إلى قسم السنة الأولى مع أطفال على غاية من حُسن الهندام وتبدو على وجوههم النّعمة والرفاهة ونظراتُهم ترشقني في إستغراب وبشيء من الإزدراء أيضا فلا شكّ أنهم تساءلوا عمّن يكون هذا الولد ذو البَشَرة التي لفحتها الشّمسُ وظل مُنزويا باهتا في كل ما حوله ؟

جلستُ على مقعد إلى الطاولة قبل الأخيرة في الصفّ الذي أمام مكتب المُعلّم ومازلت أتذكّر مشاكسة تلميذ مشاغب جلس إلى جانبي إذْ مرةً يجذبني من كُمّي ومرة تتسلل يدُه إلى جيبي فكنتُ على مدى الحصّة أدفعُه عنّي من دون أن يشعر المعلم الذي

بدا على غاية من اللطف والأناقة في كسوته السّوداء وقميصه الأبيض وربطةِ عُنقه المتناسقة الألوان بين الأحمر والأسود والأبيض وكان يتنقّل بين الصفوف بخطاه الوئيدة فيئزّ حذاؤه الأسود اللمّاع حتى إذا دنا منّي سألني عن إسمي ليسجّلني في دفتر المناداة فتردّدتُ ثم تَمْتمتُ ولم أستطع نطقه إلا بعد تلعثم فإنفجر التلاميذ ضاحكين ومتعجّبين من إسمي الغريب فلم أكد أُفصحُ عنه إلا بعد جُهد جهيد فقد إنسدّ النّفَسُ وثَقُلت الحروفُ على لساني لكأنها من الصّخر وتكوّرت وتكرّرت مرّاتٍ عديدةً بين حلقي وشفتي وزادَ من إرتباكي ضحكُ التلاميذ وتهكّمُهم بالرغم من تصدّي ـ سِي المنّوبي ـ لهم!

لم تُجدِ نفعًا يا أمّي تلك الألسِنةُ السّبعةُ التي أكلتُها في عيد الأضحى لتُطلق عُقدةَ لساني!

لقيتُ ـ سيّدي ـ ذاك بعد سنوات عديدة في النّادي الثقافي بضاحية ـ الزهراء ـ بمناسبة أمسية ثقافية حيث كان من بين الحاضرين أيضا المُمثّلُ القدير محمد بن علي والشّاعر عبدالرحمان الكبلوطي فَحَيّيتُ سِي المنّوبي بما يستحقّ من إحترام وتقدير وشُكر ووفاء وكم كنتُ سعيدا بلقائه خاصّة وقد رأيته في صحّة وعافية.

أذكر بكل إكبار المعلمين الذين كان لهم الفضلُ في فتح طرقات المعرفة أمامي فسِرتُ فيها بشّغف ومُتعة فأولئك المعلمون

هم الذين شجّعوني وصَبروا عليَّ وتحملوا حُمقي ونزَقي أحيانا ولئن لقِيتُ من بعضهم بعضَ شدّة فإنّما هي صادرةٌ عن حرص ومحبّة!

في المرحلة الإبتدائية درّسني العربيّة السيّد ـ شَعَار ـ في مدرسة نهج المغرب بتونس العاصمة وكان يتميّز بلباسه التقليديّ التونسيّ من الشّاشية إلى الجُبة والبُرنس وكان حريصًا على دروس النّحو ورسم الهمزة ودرّسني مسيو ـ بُوليلو ـ الفرنسية وقد كان حريصا على حُسن هندامنا ودرّسني مسيُو ـ سعادة ـ الحساب وبفضل هؤلاء المعلّمين الأفذاذ وغيرهم إكتسبتُ أسُسًا متينةً في مواد العربية والفرنسية والحساب.

صلاة العيد

كنتُ في العاشرةِ عندما دَعاني أبي ليلةً أن أرافقَه في الصّباح الباكر إلى جامع الزّيتونةِ لأحضُر معهُ صلاة عيد الفطر فعلّمني الطّهارةَ والوُضوء وكيفيّة أداء الصّلاة وُقوفًا ورُكوعًا وسُجودا وجُلوسا وكم بِتُّ سعيدا ليلتَها لأنّي أحْسَستُ بشدّة قُربي من والدي عند معاملتِه لي معاملةَ الصّديق والرّفيق، يومَذاك نَهضنا باكرًا وحَرَصت أمّي على أناقتِنا بعنايةٍ فائقة ،أبي في جُبّته البيضاءِ وشَاشِيته الحمراء وأنا في كسْوتي الإفرنجية الجديدة أحاول السّير على نَسَق خُطاهُ فمَضينا نشُقّ أنهُج مدينةِ تونسَ العتيقةِ الخافتةِ الأنوار في غَبَش الفجر، سَعَينا باكرًا حِرصًا على صلاة الصّبح

في الجامع ، ومازلتُ أذكر شَذى العِطر الفائح ونحنُ نرتقي درجاتِ الباب الكبير من ناحية سُوق العطّارين ،وما كدتُ أخطُو خُطواتٍ في صَحْن الجامع حتّى بَهرتني أضواءُ الثّريات المُتناسقةِ التي قابلتني من الأبواب وسُرعان ما إنتبهتُ على صوت أبي ونحنُ نَدلُف إلى قاعة الصّلاة يطلُب منّي بِرفق قبل خُطوتين من العَتَبة الخشبية أن آخذ حذائي بِيَساري وأن أقابل بينَ أسْفليْ فَرْدَتَيْهِ ثمّ يُبادر بمُساعدتي في نَزعه وأدخُل ـ مثلمَا أوصاني ـ برجلي اليُمنى أوّلا ، وتلكَ من آداب المسجد الرمزية واللطيفة فَوَطأتُ على وَجَلٍ حَصير المسجد وأنا مُنبهرٌ جَذلانُ.

رحماكَ يا أبي!

مازلتُ أذكُر كيفَ أجلستَني بقُربك بعدَ ركعتَيْ تَحيّةِ المَسجدِ، فها أنا اليوَم وبعد أكثرَ من خَمسين عامًا أعُودُ إلى نَفس المكان بالقُرب من السّاريةِ نَفسِها في جامع الزّيتونة الفَسيح البَهيّ فأشعُر كأنّكَ مازلتَ إلى جانبي بقُربي فتغمُرني السّكينةُ والمَسرّةُ وينتشِرُ مِن حَولي الأنسُ والطمأنينة.

رحماكَ يا أبي!

أنتَ الذي رأيتُ فيك الإسلام بصَفائهِ في بساطته وسَماحتهِ وأنتَ الذي رأيتُ فيكَ العَفافَ واللطفَ والكَدحَ والبَذل طول حياتِك ، لقَد كنتَ تُردّدُ دائمًا – أُدعُ إلى سبيل ربّك بالحكمةِ والموعظةِ الحَسنة – و – اِدفعْ بالتي

هـيَ أحسـنُ – و – لا يُؤمـن أحدُكـم حتّـى يُحـبَّ لأخيـه مـا يُحـبُّ لنفسِـه – و ـ المُسـلم مَـنْ سَـلِم النّـاس مِـن لسـانِهِ ويـدِهِ ـ رحماكَ يا أبي!

مـا كدنـا نَفـرُغُ مـن صـلاة الصّبـح حتّـىَ اِنبثَـق صـوتٌ لطيـفٌ وديـعٌ يُرتّـل آيـاتِ القـرآن الكريـم في أنـاةٍ ووُضـوح ، إنّـه صـوتُ الشّـيخ عـليّ الـبَرّاق ولمّـا شـعُر أبي بعـدم راحتـي في جِلسـتي عـلى الحصـير سـاعدَني في كيْفيّـة التَربّـع ثـمّ أسـندني إليـه فأخذتْـني إغفـاءةٌ خفيفـةٌ لم يَقطـعْ حلاوتَهـا إلا اِرتفـاعُ الأصـواتِ وهـيَ تُسـبّح وتُحَمدِل وتُكـبّر في تناغُـم واِنسـجام حتّـى فُتِـح البـابُ المُحَـاذي للمِحـراب على مصراعيْـهِ وخَـرج منـه الإمـامُ مَحفوفـا بالشّـيوخ وهُـمْ في تَمـام اللّبـاس التّقليـديّ التّونـسي بعِماماتِهـم الكبـيرةِ وقـد جعلـوا فوقَهـا تَواشـيحَ تَنسـدِل عـلى أكتافِهـم حمـراءَ خـضراءَ وصفـراءَ فبـدَا أولئِـكَ الشّـيوخُ مَوكبًـا مُهيبًـا في وَقـار وخُشـوع وفي بَهرجـة لم ترُقـني ، ثـمّ سـكتَ الجَمـعُ عـن الإنشـادِ بعـد جِدّهـم وحَماسِـهم حينـمَا وقـفُ الإمـامُ في المِحـراب فقُمنـا صفًّـا صفًّـا لصـلاةِ العيـد.

بعـدَ التّسـليم رأيتُـه يقـفُ ويُسَـوّي مِـن هِندامِـه ثُـمّ يَخطـو في أنـاةٍ مُتّجِهًـا إلى المنْـبر ذِي النّقائـش الهندسِـيّة البديعـةِ الأشـكال ويأخُـذُ عَصًـا عـلى يَمينـه بجانـب المِنبر ويركُزُهـا عَـلى دَرجتِـهِ الأولى ثُـمّ يَصعَد مُتَمهّـلا في بُرنسِـهِ الأبيـض الخفيـفِ ، تلـك العصـا ـ زعمُـوا ـ أنّهـا نفـسُ عَصـا الإمـام اِبـن عرْفـة الـذي قـال عندمَـا تـولّى إمامـةَ الجَامـع

يَرفعُ الدّهـرُ أنـاسًـا *** بعد أن كانُوا سُـفالـهْ
مَن لهُ في الغَيبِ شـيءٌ *** لمْ يَمُتْ حتّى ينالـهْ

مازلـتُ أذكُـرُ ـ ونحـنُ في طريـق الإيّـاب وقـد خالفْنـا بـه طريـقَ الذّهـاب ـ حديـث أبي بشـغَف عـن اِبـن عرْفـة و إخلاصِـه في طلـب العلـم والتّدريـس كامـل حياتِـه مـع تواضُعـه، لم أكـن وقتَهـا أعلـمُ يـا أبتـاهُ أنّـك تُوصيـني مـن حيـثُ لمْ أدرِ باِتّبـاع سِـيرتِهِ

المليحةُ العذراء

عندمـا اِخـترتُ شُـعبة الآداب في المرحلـة الثانيـة مـن التّعليـم الثّانـوي اِنتقلـت مـن معهـد الصّادقيـة إلى معهـد اِبـن شرف فدرّسـني الأسـتاذ الشـيخ سـيّدي محمـد سـلاّم المعلّقـات وشِـعرَ جميـل بثينـة وبشّـار وأبي نـواس.

كان شـيخنا يجلـس عـلى كـرسيّ مكتبـه فيُسَـوّي مـن هيئتـه ويُخـرج حُقّـة النّشُـوق ثـم ينطلـق في الـدّرس كالمحـاضرة فيـشرح الكلـمات بالعـودة إلى أصلهـا واشـتقاقِها ويُبـيّن مختلـف معانيهـا مُستشـهدا بالشّـعر والقـرآن فأطلعنـا عـلى ثـراء اللغـة العربيـة ودقائقهـا, وصـادف أن درّسـنا أبـا نـواس في شـهر رمضـان فـكان يُبـدي تبرّمـه مـن شرح قصائـده وكثـيرًا مـا يسـتغفر اللّـه عنـد بدايـة قراءتهـا لكنّـه عنـد آخـر الـدّرس يدعـو لـه بالمغفـرة صـادف أيضـا أن جـاءت إلى تونـس في تلـك السـنة الفنانـة ـ هُيـام يونـس ـ التـي غنّـت قصيدة – رَمَـت الفـؤاد مليحـة عـذراء –

وقد بثّها التلفزيون التونسيّ فجاء شيخنا من الغد وهو يَلهج بالقصيدة المغنّاة و يُثني على صاحبتها بالفصاحة فقال شيخنا إنها أحسنت نُطق الحروف من مخارجها الصّحيحة وأبلغت معاني القصيدة البديعة, وعندما لاحظنا شدّة إعجابه بالأغنية سألناه في مَكر عن رأيه في تلك المغنية ؟ تنهّد شيخُنا ودَقّ من نَشُوقه في أنفه وقال:

-هي الغادةُ حقّا وكأنّ القصيدة قيلت في وصفها!

كان شيخُنا كثير الإستشهاد بالزّمخشري والأصفهاني وهو لا يعترف بالأدباء والشّعراء المعاصرين و يعتبر لغتهم غير فصيحة حتّى طه حسين يرى في أسلوبه تكرارا ثقيلا ...أمّا أبو القاسم الشّابي فيعتبر شعره الرّومنطيقيَّ لا يرقى إلى وصف الطبيعة وغيرها في شعر إبن الرّومي وإبن خَفاجة.!

رحمَ الله شيخي ! كان مُخلصا لثقافته التقليدية المتينة ووفيّا لذوقه القديم وكان مُحافظا على الزّيّ التونسيّ الأصيل صيفا وشتاءً مثل أستاذي الشّيخ سيّدي محمد علي السّهيلي وأستاذي الشّيخ سيّدي محمد الأخوة الذي درّسنا مادّة التّربية الإسلامية بروح الرّفقة والمحبّة فغرس في نفوسنا القِيم الإسلامية السّمحةَ وقد زاد إجلالا و إكبارًا لدينا عندما كان يَهُمُّ يومًا بدخول القاعة إذْ أصابت وجهَهُ فَردةُ حذاءِ أحدِ التّلاميذ وقد رمى بها زميلا له فلم يغضبْ شيخُنا و إنّما أخذها وقال له بلطف:

ـ لا تَمش حافيًا يا ولدي!

ودرَسْنا الجغرافيا لدى الأستاذ سيّدي عبد الحميد الجربي ومازلت أذكر كيف كان يُبدي إستغرابه من سياسة الدّولة الإقتصادية القائمة على الإشتراكية بالإعتماد على القروض الرأسمالية ودرّسنا الأستاذ سيدي أحمد قاسم التاريخ المعاصر بداية من الثورة الفرنسية إلى حرب فلسطين سنة 1948 فكانت دروسه تفتح في أذهاننا مجال الوعي بالقضايا العربية, والأستاذان عبد الحميد الجربي وأحمد قاسم قد أتمّا دراستهما العالية في المشرق العربي مثل سيّدي عبد الكريم المرّاق أستاذ الفلسفة.

لذلك أعتبر أنّه من حُسن حظّي أنّني تتلمذت في تعليمي الثانوي إلى أساتذة جهابذة في اللغة العربية وأدبها إذ أنّ أغلبهم من خرّيجي جامع الزيتونة المتضّلعين، أما في اللغة الفرنسية فقد درّسني أساتذة فرنسيون كانوا حريصين ـ والحق يُقال ـ على تعليمنا بإخلاص ونزاهة بعيدا عن كل الشّوائب الإستعمارية بل كانوا يصرّحون لنا بحبهم لتونس ولحضارتها العريقة ومساندتهم للقضية الفلسطينية ،ودرّسني اللغة الإنقليزية أساتذة شُبّان من الولايات المتّحدة الأمريكية وقد عبّروا لنا مرّاتٍ عديدةً عن رفضهم لحرب بلادهم في الفتنام، ودرّسني الموسيقى الأستاذ سيّدي العنّابي الذي كان يعزف لنا على كمنجته ونغنّي معه بعض الموشّحات والأناشيد ، وفي الرسم درّسني الأستاذ ـ مَسيُو سَرفَاتي ـ وهو من أشهر الرسّامين التونسيين في الأكَوَرال ، فأنا من جيل تلقّى تكوينا ثقافيّا عميقا ومتنوّعا لذلك نشأنا على الإعتزاز

بتجذّرنا في وطننا وحضارتنا وعلى الإنفتاح على بقيّة الحضارات والأمم ضمن القيم الإنسانيّة الخالدة.

كيف أنسى السيّد ـ أحمد ـ بوّابَ المعهد الذي كثيرا ما أنشدَنا قصائد المتنبّي والمعرّي والشّابي وغيرهم فكنا نَعجَب من قوّة ذاكرته ومن عدم تناسُب مستواه الثقافيّ مع مهنته فكنّا نُجلّه ونُفاخر به تلاميذ المعاهد الأخرى الذين نلتقي بهم في ـ مقهى سيدي بوسعيد ـ عند باب العُلوج حيث كنا نجلس فيه كلما سمح لنا جدول أوقات الدّراسة فالمقهى لدى البعض قاعة للمراجعة والمطالعة وهو للعب الورق لدى البعض الآخر وهو لدى آخرين مكان إستراتيجيّ حيث يراقبون منه الرائحات والغاديات من آنسات معهد نهج الباشا وقد عُرف ذلك المقهى أيضا ببثّه لأغاني أمّ كلثوم من المُسجّل القديم صباحا مساءً...

هيهاتَ... قد غزا التلفزيون والفضائيات الدّيار والمقاهي فما عُدت أسمع عندما أمرّ من ذلك المقهى ـ رباعيات الخيام ـ أو ـ أنا في إنتظارك ـ أو ـ سيرة الحبّ ـ إنّ الإستماع إلى أمّ كلثوم في ذلك المقهى له رونقٌ باذخ ومُتعةٌ عجيبة.

ولكن...هيهات...هيهات...

ـ الرّصاصةُ الطائشة

بعدما تخرّجتُ من كلية الآداب بتونس في جوان 1976 تقدّمتُ مع بعض الأصدقاء إلى الخدمة العسكرية بثكنة التّجنيد قرب باب

سَعدون ومنها إنتقلنا في عَربة الجيش إلى الأكاديمية العسكرية بجهة ـ فندق الجديد ـ حيث تدرّبنا مدّة أربعة أشهر وتخرّجنا ضباطا برتبة مُلازم... لقد إنسجمتُ بسهولة مع ضرورات الحياة العسكرية بإعتبارها فترة لن تستمّر طويلا.

كانت تجربة مفيدة وثريّة من خلال تدريبنا على مختلف الأسلحة وتعرّفنا على فنيّات القيادة وبفضل الدّروس النظرية والتطبيقية التي قدّمها لنا المختصّون فقد كنّا محلّ رعاية مركّزة, ومن حفظ الله ولطفه بي أنّني نجوت من رصاصة طائشة كادت تصيبني في صدري عندما كنّا واقفين في الصفّ أمام الأهداف نتدرّب على الرّمي بالمسدّس إذ بصديقي الواقف إلى جانبي يُوجّه مسدّسه نحوي بَدل أن يُنزله عموديّا في إتجاه الهدف وليس يدري كيف إنطلقت الرصاصة فأصابت ـ والحمد لله ـ مُقدّمَةَ حذائي فحسب، حينها قال لي الضّابط المباشر :لا تَخفْ فالرّصاصة التي تقتُل تُصيب قبل أن تُسمع!

في أوائل سنة 1977 وبعد التّدريب المُركّز والسّريع نِلت نجمة ضابطٍ ملازم وتوجّهتُ إلى القاعدة الجويّة ببنزرت حيث إستقبلني آمرُ جيش الطيران بترحاب لم أكن أتوقّعه فقد تقدّم نحوي من مكتبه بعد ما حيّيته تحية إنضباط وإحترام ودعاني إلى الجلوس في الصالون مُبديا إستبشاره بتعزيز سلك ضبّاطه بمتخرّج من كلية الآداب ليكلفه بتدريس المواد الثقافيّة في المدارس العسكريّة المختصّة في جيش الطيران وبمساعدة بقيّة الضبّاط عند الحاجة.

في مساء ذلك اليوم الشتائيّ خرجتُ من القاعدة الجويّة بزيّ الضبّاط الرسميّ والنّجمتان تلمعان على كتفيّ وقَصدت وسط مدينة بنزرت التي زرتُها من قبلُ برفقة والدي بمناسبة الإحتفال بذكرى الجلاء الأولى لعل ذلك سنة 1963 فجالت في خاطري بعض ذكريات ذلك اليوم المشهود عندما رفعني أبي على كتفيه بين الحشود لأشاهد من قريب موكب الزعماء بورقيبة وعبد الناصر وأحمد بن بَلّة ومعهم وليّ العهد حسن الرضا الليبيّ, إنّها مناسبة فريدة عبّرت عن الوشائج العميقة بين بلدان المغرب من ناحية وبينها وبين بلدان المشرق من ناحية أخرى ولكنّها مناسبة تاريخية سُرعان ما جرفتها الإختلافات التي ظلت متواصلة حتّى إن هدأت حينا سُرعان ما تَشُبّ من جديد لتُهدَرَ الطاقاتُ العربية الكبيرة وتُداسَ الشّعوب تحت أحذية المستبدّين بالحكم الفرديّ في هذا البلد العربيّ أو ذاك.

كانت فترةُ الجنديّة التي قضيتها في بنزرت مُهمّة وثريّة بالتجارب خاصة من الناحية الإنسانية فقد وقفتُ على كثير من النماذج النفسية والسلوكية التي شاءت الأقدار أن تجتمع في تلك القاعدة وقد ضمّت عسكريين من مختلف الرّتب والإختصاصات والأعمار والمستويات الإجتماعية ومن شتّى المدن والأرياف والجهات التونسية.

من طرائف الوقائع التي عشتُها أنّه بمناسبة ذكرى الجلاء عن بنزرت إنتظمتْ مسابقات رياضية بين مختلف الجيوش وبما

أنّي كنتُ أصغر الضبّاط فقد أجمعُوا على أن أتقدّم إلى مباراة الملاكمة على أن يشارك مَن يريد مِن الضبّاط الآخرين في بقية الألعاب فما كان من ذلك الملازم إلا الموافقةُ رغم علمه بما ينتظره من منافسه القدير ولكنْ ـ مُكرهٌ أخاك ولا بطل ـ فلا تَسل عمّا ناله من خصمه الذي كان من مفتولي عضلات جيش البحر إذِ إنهال عليه بلكمات كأنّها المطارق عازمًا على إسقاطه بالضّربة القاضية من الجولة الأولى لكنّ ملازمنا عَرف كيف يتصدّى له ويصمد , مرّة بمراوغة رأسه يمنةً ويسرة ومرّة بسرعة تنقّله ممّا جعل خصمه يَفقُد تركيزه في تسديد لكماته فبدَا عليه الغضبُ خاصّة عندما يُحالف الحظُّ الملازمَ في النّيل منهُ, وكان الإنتصار من نصيب الملاكم البحريّ طبعا!

المهمُّ... أنّ الملازمَ نجا بأخفّ الأضرار ومن الضّربة القاضية على كل حال

مجالسُ الأنس

سلامًا على تلك المجالس

سلاما على تلك المقاهي

سلاما سلامًا

عديدةٌ هي المقاهي التي جلستُ فيها للقراءة والكتابة حينا ولمحادثة الأصدقاء حينا آخر من بينها مقهى -المغرب- الذي كان بشارع فرنسا فقد كان يرتاده كثير من الأدباء الذين

أدركتهم من بينهم ـ البشير خريف ـ وأبو زيّان السّعدي ـ حسن نصر ـ والتّابعي الأخضر ـ وقد جلست فيه لأوّل مرة مع الأديب -علي دَبْ- سنة 1972 فصرت أستأنس بالجلوس فيه كلما وجدت الوقت المناسب خاصّة عندما أقتني الصّحف والمجلات من الكُشك المقابل له على الرصيف فأسارع بتصفحّها وقراءة بعض الصفحات منها حيث يطيب الاِنزواء هناك في عشيّات الصّيف على زقزقات أسراب عصافير أشجار باب البحر ، لكنّ مقهى المغرب تحوّل منذ سنوات عديدة إلى دُكانيْن لبيع الملابس الجاهزة فكم جلس الأدباء هناك وكم وقفوا أمامه في أحاديث لا تنتهي وكم من كتاب وكم من مجلّة وصحيفة تبادلوها وكم من قصيدة وقصّة ومقالة قرؤوها وكم من فكرة تطارحوها!

سلاما على ذلك المجلس

سلاما على ذلك المقهى

سلاما سلاما على مقهى - الكون- بشارع الحبيب بورقيبة فقد جلستُ فيه سنوات عديدة مع أصدقائي الشّعراء محمد رضا الكافي وعبد الحميد خريف وخالد النجار ومختار اللغماني وعزوز الجملي ومحمد أحمد القابسي والتهامي الهاني ومع عديد الشّعراء والأدباء الآخرين بالإضافة إلى بعض أصدقائي من طلبة كلية الآداب بتونس من بينهم علي عبيد ومحمد علي بالعابد وأحمد الدبّابي والبزّازي العيّاري الذين كانوا من رفقاء الجنديّة

أيضا, كنت أجلس في مقهى ـ الكون ـ عند الصّباح فبعد الظهر يمتلئ بفئة أخرى من الروّاد الذين يتحلّقون صاخبين وشاءت الظروف أن أغيب عن ذلك المقهى سنوات متوالية بعد أن تفرّق الشّمل ثم جلستُ فيه مرة بعد ذلك فإذا النادل قد عرفني وتذكّرني ولم يشأ أن يقبل مني ثمن القهوة حتّى بعد إلحاحي، أحسست حينذاك بعمق المشاعر الإنسانية التي تُفاجئنا من لَدُن أشخاص بسطاء نلتقيهم في خضمّ الحياة اليومية فيشحذون نفوسنا بقيم المروءة والشهامة.

سلاما سلاما

سلاما على مقهى ـ الرّوتوندة ـ ببناية الكُوليزي بشارع بورقيبة فقد جلستُ فيه سنواتٍ عديدةً خاصة عند صُبحيات أيّام الأحد حيث تلتئم في رُكن من الطابق العلويّ منه جماعةُ ـ نادي القصّة ـ ومن بين المواظبين على ذلك المجلس الأدباء : رضوان الكوني وأحمد مَمُّو ومحمد الهادي بن صالح والتّابعي الأخضر و يوسف عبد العاطي والناصر التّومي ومصباح بوحبيل وغيرهم و يَحُلُّ بينهم من حين إلى آخر أدباء وصحفيّون آخرون فهذا المجلس الأدبيّ ظل سنوات مستمرّا حتّى أضحى مُلتقًى وعنوانا معروفا بين الأدباء التونسيين وحّتى لدى كثير من الأدباء المشارقة وهو أقرب إلى أحاديث الأنس وتبادل الأخبار والكتب والتعارف منه إلى الخوض في المسائل الجديّة العميقة وقد جلستُ في هذا المقهى عند الصباح في غير أيام الأحد أيضا فأنتحِي طاولة جانبا

وأنكبّ على القراءة أو الكتابة ساعة أو ساعتين ثمّ أنصرف وقد جلستُ في رحاب ذلك المقهى مع أصدقاء كثيرين من الأدباء والشّعراء والصحفيين من بينهم محمد المَيْ ومحمد بالرجب ونور الدين بالطيّب وسالم اللبّان وغيرهم... فساحتُه الداخليّة هادئة وقليلة الروّاد في الصّباح لكنها بعد الظهر تُمسي حلقات حلقات تعُجّ بالدخان و القوارير الأخرى.

سلاما على ذلك المجلس

سلاما على ذلك المقهى

سلاما سلاما على مقهى – فلُورنس - في أوّل شارع قرطاج فقد عرفت فيه عن قُرب صديقي الشاعر محمد بن صالح الذي بادرني بالتحيّة بعدما تملّى ملامحي فصرنا نتواعد فيه كلما أتى إلى العاصمة من المنستير وقد ضمّ هذا المقهى مجلسا صباحيا يوميّا متنوع الروّاد وكنت أجلس فيه من حين إلى آخر لمعرفة آخر أخبار الأنشطة الثقافية وقد كان من روّاده المواظبين المُمثّل محمد بن علي والسينمائي عُمَار الخليفي والموسيقي محمد القرفي والفنّان الفوتوغرافي محمد العايب والأدباء محمود بلعيد وسمير العيادي ومحمد بن رجب ومحمد الفريقي وعبد الحميد خريف ونور الدين بالطيّب وآخرون يجلسون قليلا أو يمرّون وقد ألقوا التحيّة عابرين من بينهم الرسّام بوعبانة الذي كان يجلس وحده.

ولا أنسى السيّد حسن بوزريبة المسؤول عن مهرجان

قرطاج في بعض دوراته والذي اِستجاب لاِقتراحي في تنظيم سهرة الشّعر بمسرح قرطاج سنة . 1992 كانت سهرة ممتعة متنوّعة الأصوات وبإخراج مسرحي للبشير الدّريسي الذي اِقترح أن يسير الشّاعر في ممشى بين الشّموع ثم ينزل إلى الركح على مدارج فُرشت بساطا أحمرَ إلى أن يقفَ أمام المنصّة فيُلقي ما أراد من شعره ـ بدون رقابة مُسبقة ـ في مُدة عشرين دقيقة تسلّم كل شاعر في تلك السّهرة مكافأة مالية لعلّها كانت أكبر مكافأة في تونس بالنّسبة للشّعر!

وقد أقام الشّعراء الوافدون من خارج العاصمة في فندق أربعة نجوم وقدّم هؤلاء الشّعراءَ تِباعا في السّهرة الأديبان محمد البدوي وعلياء رحيم...

سلامًا على تلك السهرة

سلاما على تلك المقاهي

سلاما على ذلك الزّمن...

سلاما على شارع الرشيد ببغداد هو قلبها النابض إذْ تنطلق منه الحياة بطيئة هادئة وتعود إليه صاخبة هادرة على ضفّتيْ نهر دجلة...

من شارع الرشيد يمكن أن ترى الحضارة التي اِنبثقت في بلاد الرّافدين قبل آلاف الأعوام وذلك عندما تلاحظ البناء بقوالب الطوب ومن خلال خطوط المباني وزواياها, ويتسنّى لك أن

تُلامس بصمات الحضارة العربيّة عندما تشاهد خشب النّوافذ والشّرفات وقد نُقشت بدقّة وفنّ ضمن ثنائية الأنوار والظلال طبقا لمتطلبات المناخ ولعادات الشّرق في حُرمة البيت، وما أروع المآذن الأسطوانية المُسَجّات بالخَزف الأخضر والأزرق والأصفر في هندسة تُثير التأمّل وتُشيع الجلال وتبعث الجمال نحو عوالم المحبّة والصّفاء!

تلك هي بغداد : أخذتْ من كل الحضارات وصهرتها وبتوالي العصور اِستطاعت أن تجعل لنفسها طابعا خاصّا يلوح في شاعريّة الحياة وفي الذّوق المرهَف وفي حركة الناس وهم يَسْعَوْنَ بجدّ رغم المِحن ورغم تحديّات الزّمن.

بالقُرب من شارع المتنبّي الذي يبدأ من شارع الرّشيد ثمّة مقهى أمّ كلثوم...إنّه مقهى طريف أوصلني إليه صديقي الشّاعر إبراهيم زيدان الذي تعرفت إليه سنة 1984 أثناء زيارتي الأولى لبغداد ومن تلك المناسبة صرنا أصدقاء...

كل شيء عتيق في هذا المقهى : من البلاط إلى الأرائك إلى المراوح المتدليّة من السّقف ومن الأغاني المسجّلة على الأسطوانات إلى الأغاني الأخيرة في السّبعينات لأمّ كلثوم, تلك الأغاني التي تستمرّ من السّاعة السابعة صباحا إلى الحادية عشرة ليلا دون اِنقطاع.

أنشِئ هذا المقهى في سنوات الستّينات من القرن العشرين وظلّ محافظا على نمطه وعلى تقاليده من أب إلى اِبن بدون أي تغيير لأن

صاحبه الأوّل كان من عشّاق أم كلثوم وثمّة روّاد محافظون على اِرتيادهم هذا المقهى سنوات طويلة للاِستماع وتراهم ينتظرون أغنيتهم المفضّلة السّاعات الطوال حتى أنّهم صاروا يُعرَفُون لدى عريف المقهى بأغنية من أغاني كوكب الشرق فتراهم وهُم منصتون شاردين بين صَوتها وصُورها في مختلف المناسبات عبر السّنوات وهي تُزيّن جُدران المقهى التي ما كادت تلوح بينها... إنّهم روّاد أوفياء لأمّ كلثوم - السِتّ - ولأمّ كلثوم المقهى... إنّهم من أعمار متفاوتة ومن فئات متنوّعة تراهم يترشّفون الشّايَ وكأنّي بهم يترشّفون الفنّ الأصيل والذّوق الرّفيع, فما أروعها من ساعةٍ في ذلك المقهى

الهوى الأوّل

في العاشرة من عُمري اِصطحبتُ سِي الحبيب، وكان شابا من أبناء عمّ الوالد ،إلى المكتبة العمومية بنهج يوغسلافيا، نهج راضية الحدّاد اليوم، وسِي الحبيب كان على قدر كبير من اللطف والأدب وله بعض الرسائل مع ميخائيل نعيمة فقد اِلتقى به في تونس بمناسبة زيارته ويَعتبر تلك الرسائل أثمن ما لديه وينبغي أن أصرح أنه صاحب الفضل الكبير عليّ فقد بذر في مُهجتي محبّة الأدب ومطالعة الكتب وأذكر أن سِي الحبيب عبيد كان يراسل برنامج هواة الأدب بالإذاعة التونسية الذي كان يشرف عليه وقتذاك الشّاعر أحمد اللغماني وقد نال جائزة

عـلى إحـدى قصصـه, الجائـزة كانـت كتـاب أحمـد أمين – فيـض الخاطر – بأجزائـه العـشرة ولكـن سي الحبيـب اِنقطـع عـن الدّراسـة والكتابـة مـع الأسـف فقـد أقعـده المـرض المزمـن وفَـلّ مـن عزيمتـه لكنـه ظـل متابعـا للحركـة الأدبيـة والثقافيـة ومشّـجعا لي دائمـا وهـو الـذي أهـداني ديـوان الشّـابي فـكان أوّل ديـوان شـعري في مكتبتـي.

عندمـا دلفـتُ إلى تلـك المكتبـة العموميـة الكائنـة في قلـب تونـس العاصمـة غمـرني شـعور البهجـة والاِنـشراح والوَجل أيضا فـلأوّل مرة أرى ذلـك العـدد الهائـل مـن الكتـب عـلى الرفـوف في نظـام وانسـجام وأرى القُـرّاء منكبّـين جالسـين حـول المناضـد كأنّ عـلى رؤوسـهم الطّـير فأحسسـت أنّ هـذا المـكان هـو المقـام الأليـف الـذي وقـع هـواه في مهجتـي مـن أول نطـرة ومـن أول خطـوة فلـم أغـادر المكتبـة إلا بعـد أن أتممـت قصة –جزيـرة الكنز – مـن سلسـلة – أولادنا – ومازلـت إلى اليـوم بعـد أكـثر مـن نصـف قـرن أجلـس في رحـاب تلك المكتبـة مـن حـين إلى آخـر فينتابـني نفـس ذلـك الشـعور الممتـع كيف لا ! وبعـض مؤلفـاتي تصادفـني أحيانـا عنـد أحـد الرفـوف فأتذكـر ذلـك الفتـى اليافـع الـذي تمـنّى ذات يـوم أن يكـون لـه كتـاب بـين الكتـب في تلـك المكتبـة التـي طالـع فيهـا جـبران ونعيمـة والمنفلوطـي وطـه حسـين وغيرهـم والتـي قـرأ فيها كثـيرا مـن الروايـات الفرنسـية المنشـورة في سلسـلة– كتاب الجيب – ومـن الكتـب التونسـية الأولى التـي طالعهـا كتاب – معركـة الجـلاز – للأديبـين محمـد المرزوقـي و الجيـلاني بالحـاج يحـي الـذي صـار مـن أصدقائـه وأهـداه بعـض كتبـه

التـي سـاهم بقصيـدة قصـيرة في أحدهـا فكـم كان سـعيدا عندما رأى اِسـمه منشـورا في كتـاب ألّفـه أحـد الأدبـاء الذيـن قـرأ لهم وهـو فتى. المكتبـة الثانيـة التـي أحببتهـا وأَلِفتُهـا سـنواتٍ طِـوالا مـن عمـري هـي المكتبـة الوطنيـة بسـوق العطاريـن وقـد دخلتهـا أول مـرّة عنـد دراسـتي في معهـد الصادقيـة فقـد لمحتهـا في طريقـي جيئـة وذهابـا فتهيّبـت الدخـول إليهـا إذ كنـت في السـنة الأولى مـن التعليـم الثانـوي لكـني لا أذكـر كيـف تشـجّعت ودخلـت فـإذا بي أجـد نفـسي في عـالم لا حـدود لـه ولا أبعـاد خاصـة وأن القواميـس والموسـوعات ألفيتهـا في متنـاول يـدي مبـاشرة عـلى الرفـوف فأبحـرت فيهـا ومـا أمتعـه مـن إبحار !...مازلـت أذكـر كيـف أنّي وجـدت صعوبـة كبـيرة لـدى القـراءة في قامـوس ـ لسـان العـرب ـ فالطبعـة الأصليّـة الأولى التـي وجدتهـا وقتـذاك كانـت الكلـمات فيهـا مرتّبـة بحسـب أصـل حروفهـا الأخـيرة ولم أتفطـن إلى ذلـك إلا بعـد عنـاء!

مكتبة العطارين !

مـا أروع سـنوات العمـر التـي قضيتهـا بـين رفوفـكِ وعـلى كراسـيك الخشـبيّة يـا مكتبـة العطارين...!

تحيّـةُ شـكر خاصّـةٌ إلى عَـمْ سـالم الـذي كان رفيقـا بنـا وحريصـا عـلى إحضـار مـا نطلبـه مـن الكتـب في لمـح البـصر ونَعجـب مـن ذاكرتـه الدّقيقـة التـي تعـرف الرّفـوف والخزائـن كتابـا كتابـا من دون الرجـوع إلى الفهارس...وتحيّـةُ شـكر أيضـا إلى سِي أحمـد جليـد الـذي

كان مسؤولا عن الدّوريات من صُحف ومجلات فكان لا يدّخر جُهدا في إحضارها إلينا...

أوّل ما طالعتُ في مكتبة العطارين روايات جُرجي زيدان و كتاب البخلاء وكتاب ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة والفضل يعود إلى أستاذي سيّدي البشير العريبي الذي كان يحدثنا عن تلك الكتب فكنت أسعى إليها بلهفة وأقضي العطل في فضاء تلك المكتبة ذات الهندسة العتيقة فهي دافئةٌ شتاءً باردةٌ صيفا ثم قرأت فيها كتاب الأغاني وروايات نجيب محفوظ وكتب العقاد في السنة الثانية وتوالت سنوات الشبيبة بين قاعاتها وردهاتها أستنشق شذى الكتب والمخطوطات حتى اِنتقلت المكتبة الوطنية إلى بنايتها الجديدة في شارع 9 أفريل.

كانت المكتبة الوطنية في سوق العطارين مُحاطة بعديد الكُتبيّات الخاصة التي تبيع الكتب العربية القادمة من القاهرة وبيروت ,من بين تلك المكتبات مكتبة علي المطوي القريبة من جامع الزيتونة وقد اِشتريت منها كتاب السدّ للمسعدي سنة1967 وأنا لم أتجاوز الخامسة عشرة من عمري واِشتريت منها أيضا دواوين نزار قباني وكتاب البيان والتبيين وغيرها من الكتب ومازالت هذه الكتبيّة موجودة ـ سنة 2016 ـ يقوم على أمرها ابنُه و إلى اليوم مازلت عندما أمرّ أمامها وأرى الكتب منضّدة أعودُ ذلك الفتى الذي كان يقف طويلا يتصفحّها و يقرأ الكثير من صفحاتها دون أن ينهره صاحبُها رحمه الله.

بالقرب من تلك المكتبة الخاصّة ـ مكتبة السيّد علي الطرابلسي ـ حيث كان يجلس فيها ثلّة من الأدباء والأساتذة تشرفت بمعرفتهم بعد سنوات عديدة من بينهم الجيلاني بن الحاج يحي ومحمد المرزوقي ومحمد اليعلاوي الذي درسني في كلية الآداب.

للمكتبة الوطنية بسوق العطارين ذكريات في وجداني عبقة بما كان فيها من شوق عارم للكتب في سنوات الدراسة والطلب... كنت في كثير من المرات أوّل الداخلين وآخر المُغادرين...

اليومَ... عندما أمرّ أمامها أدرك معنى الوقوف على الأطلال.

لقد اِندثرت أغلب الكتبيات التي كانت محيطة بجامع الزيتونة وتلك التي كانت في شوارع تونس وتحوّلت إلى محلات للأكلات السّريعة أو دكاكين للملابس الجاهزة...فشتّان بين هذا العهد وذاك الزمن...ذاك زمنٌ نشأنا فيه على المطالعة فنهلنا من شتّى الأفكار المختلفة التي أخذناها من مصادرها الأصلية ومن معلّمين وأساتذة أفذاذ كانوا مخلصين لرسالة العلم والمعرفة وحضرنا في مختلف نوادي الثقافة ودُورها تلك التي كانت مثل خلايا النّحل تعُجّ بالروّاد والأفكار ومختلف الفنون مثل دار الثقافة اِبن خلدون ودار الثقافة اِبن رشيق والنادي الثقافي أبو القاسم الشّابي والنادي الثقافي الطاهر الحداد وجمعية قدماء الصادقية وغيرها... حيث أنصتنا إلى عديد الأدباء والشعراء والمثقفين تونسيين وعرب وغيرهم...ثمّ تراجعت الحياة الثقافية

عامة في أواخر القرن العشرين حتى تدهورت خلال هذه السّنوات من – الربيع العربي– فأمست إلى السّطحية و إلى ضيق الأفق المعرفي تميل....وَاحسرتاه...! فقد صار حالنا كقول الشّاعر القديم

رُبِّ يومٍ بكيتُ منهُ فلمّا *** صرتُ في غيره بكيتُ عليه

الهوى الثّاني

ما أجملُ من الهوى الأوّل إلا الهوى الثّاني فقد نشأ عن الهوى الأول وظل ملازما له دائما فسكن معه مهجتي بلا بغضاء ولا منافسة ولا حسد بل تعاشرا بالألفة والمعروف إلى اليوم حتى لكأن الواحد منهما أصبح توأما للآخر أو كجذع الشّجرة الذي تفرّع إلى فرعين عندما كنت أتردّد على مكتبة العطارين كنتُ أمرّ أمام مقهى الأندلس القريب من جامع الزيتونة أيضا وهو مقهى من الطراز العتيق بطاولاته الرخامية الصقيلة وبكراسيه الخشبية الظريفة والمتناسقة مع اللوح الجميل المُخرّم الذي يغطي الجدران وصاحب هذا المقهى حريص عليه كحرصه على أناقة لباسه التونسي بالجبّة والبرنس والشاشية وكحرصه على ضبط وقته وهو يُخرج ساعةَ جيبه ذات السلسلة الذهبية من حين إلى آخر فكنت أراه جالسا على يمين مدخل المقهى وهو المركز الإستراتيجي الذي يراقب منه الداخل والخارج ويرى منه

جميع الطاولات ومن حولها وما عليها فكنت أتهيب الدخول إليه فالمقهى كان يُعتبر في تربيتي مكانا للكبار فقط وهو فضاء مريب لأن الجلوس فيه مضيعة للوقت في الكلام ولعب الورق والقمار ...غير أنّي علمتُ أن الشّاعر أبا القاسم الشابي كان يجلس مع أصدقائه في هذا المقهى فوجدت الذريعة لنفسي وتقدّمت إلى إحدى الطاولات وطلبت فنجان شكلاطة بالحليب كما فعل الذي كان جالسا بجانب الطاولة المجاورة وظل ذلك طلبي دائما.

يومها كان اللقاء الأول مع الهوى الثاني...هوى المقاهي في مقهى الأندلس كنت أجلس أقرأ الجرائد والمجلات وبعض الصفحات من الكتب التي كنت أشتريها فأجلس في ناحية على عجل أكتشف سطورها بنهم على رشفات فنجان الشكلاطة بالحليب الذي من النادر جدا أن تجد نكهة مذاقه في المقاهي الأخرى.

في مقهى الأندلس جلست مع كثير من أصدقائي الأدباء والشعراء مثل خالد النجار وعبد الحميد خريف ومصطفى المدائني ومختار اللغماني ومحمد الطاهر الضيفاوي والحبيب السالمي ومحمد أحمد القابسي ومحمد البدوي وعزوز الجملي وغيرهم من زملاء كلية الآداب بتونس فقد كان ذلك المقهى ملتقى لرواد المكتبة الوطنية وقتذاك من طلبة وأساتذة وباحثين...

ومن رواد المقهى المواظبين الذين لا يجب أن أنسى ذِكرَهم

– أستاذ التعاسة – هكذا عُرف بين الأدباء فقد كان يجلس بينهم من مقهى إلى مقهى ومن نادي إلى نادي, هو رجلٌ لطيفٌ فصيحُ العبارة يلبس السّواد دائما ويخُوض في المسائل الفكرية والأدبية والسياسية ويُفيد ببعض التفاصيل أحيانا ومن خلال سياق أحاديثه يعلمك أنه إنقطع عن تعليمه العالي بسبب دخوله السّجن ضمن بعض المحاكمات السياسية ثم بعدما غادره سافر إلى القاهرة وبغداد وبيروت فتعرف على كثير من الأدباء والشعراء والصحافيين والسياسيين, وهم أصدقاؤه جميعا وقد إستنبط – حسب زعمه – نظرية خاصة به من خلال مسيرته وقراءاته أطلق عليها نظرية التعاسة وتقوم على أساس العيش الهامشي إن – أستاذ التعاسة – شخصية عرفها أغلب أدباء سنوات السّبعين والثمانين في تونس وكانوا يلاطفونه ويحسنون إليه بما يتيسّر لهم غير أن بعض الشعراء الشباب الذين وفدوا على العاصمة وقتذاك إنبهروا به فجعلوه مثالا لسلوكهم حتى جنحوا إلى الحياة الهامشية فظلوا مع الأسف على هامش الحركة الأدبية ولم يعمّقوا تجربتهم الإبداعية ثمّ حَدث ما لم يخطر على بال أحد فقد تحوّل المقهى في منتصف سنوات الثمانين إلى مقرّ بنك وقد إنبرى حينذاك عديد الأدباء والصحفيين داعين للمحافظة على المقهى لأنه يرمز إلى الذاكرة الثقافية فهو مَعلم من معالمها النابضة ولكن خاب المسعى فقد إنتصر الدّينار والدولار على الأدب والأشعار وقد تحولت أيضا الكُتبيّة التي كانت بجانب

مقهى الأندلس إلى دكان بضائع سياحية ولم يَبق من هاتيك المعالم إلا مطعم –المهداوي –المختصّ في الأكلات التونسية التي كان يطهيها على الفحم وفي قُدور من نحاس كبيرة.

منذ سنوات تبدّل كل شيء... فلا مكتبة عطارين ولا مقهى ولا شذى هاتيك العطور التي تنفحك وردا و ياسمينا ومسكا وعنبرا وأنت تمرّ أمام الدكاكين الصغيرة المنضّدةِ قواريرُها بحُسن تنسيق وكثيرا ما يدعُوك أربابُها بلطف وظرافة إلى طيبهم و قَرنفلهم بل و يرشّونك بماء الورد والزّهر أحيانا.

السّردين والشّكلاطة

بينما نحن في درس العربية مع الأستاذ سيدي البشير العريبي بمعهد الصّادقية إذ تناهت إلى سَمعنا أصوات جَلبة فأغلق الأستاذ الباب ولكن سرعان ما إقتحمت جماعة من التلاميذ مع شّبان آخرين القسم صارخين ـ فلسطين !! فلسطين !! ـ وطلبوا منّا المغادرة والخروج معهم للتّنديد بإسرائيل ، كان ذلك يوم 5 أو 6 جوان سنة 1967عندما إنطلقت الهَبّةُ مع تلاميذ المعاهد المجاورة بقيادة طلبة كلية الآداب فسلكنا مُستنفِرين الناس أسواقَ المدينة العتيقة المحيطة بجامع الزيتونة حتى إلتقت الجموع عند باب البحر حيث ـ وقتذاك ـ مقرّات بعض السّفارات الأوروبية والمركز الثقافي الأمريكي فهشّمت الجموع ما هشّمت وأحرقت ما أحرقت ولم يصدّها في آخر المساء إلا نفر قليل

من الحرس الوطني المعزّز ببعض عمّال الميناء والشركات العامة حاملين هراوات يهشّون به علينا في الهواء ولكن نلنا منها بعد ذلك في التحرّكات الجامعية المختلفة ما ناله طبل العيد ، ثم بعد يوم أو يومين من تلك الأحداث كنتُ مع الواقفين على جنبات الطرقات نُودّع فِرق الجيش التونسي بالهتافات وبعُلب الأجبان والسّردين والشكلاطة أيضا وكان في ظننا أنه سيشارك في الحرب لتحرير فلسطين غير أنه ما كاد يصل إلى الحدود حتى قُضي الأمر وحلّت الهزيمة النكراء فلم يصدّقها حينذاك أغلب الناس الذين كانوا يستمعون إلى بعض الإذاعات ذات الحماسة الجوفاء والبلاغات الكاذبة.

في ظروف تلك الأحداث العربية الأليمة وفي خضمّ إحتجاجات الشباب في العالم ضدّ حرب الفتنام وضدّ الميز العنصري في جنوب إفريقيا ومع بروز الحركات التحررية في شتّى أنحاء العالم تنامى لديّ الإقتناع بضرورة تجاوز السائد من الأنظمة والأحزاب والنظريات الجاهزة فقد أثبت الواقع فشلها وخواءها من خلال عديد التجارب التي لم تخلّف في بلدانها شرقا وغربا إلا الإستبداد والقهر والفقر وراح ضحيتها عديد الشعوب فإنبريتُ أبحث عن الجديد المنشود وقد طلبته في الشّعر لذلك كنت من الفاعلين في ظهور جماعة ـ شعراء الرّيح الإبداعية ـ التي خالفت جماعة شعراء القيروان ذات الأبعاد التراثية والقومية العربية وجماعة المنحى الواقعي ذات المنطلقات الإشتراكية وذلك بمناسبة

ملتقى الشعر التونسي الذي إنعقد بالمركز الثقافي بالحمامات سنة 1983 وقد عبّر شعراء ـ الرّيح الإبداعية ـ عن رفضهم للقوالب الإديولوجية في تلك السنوات التي شهدت بعدئذ إنهيار الأنظمة القائمة فيها على الأحزاب المستبدّة...لقد كان إستشرافنا صحيحا...

لم تمض إلا سنوات قليلة بعد ملتقى الحمامات للشّعر حتّى تمّ إبعاد بورقيبة عن الحكم وتولّي بن على مقاليد البلاد فعشنا على إثر ذلك فترة وردية من حرية التعبير والتنظيم إذ إزدهرت الحركة الثقافية في مختلف الجمعيات ودور الثقافة والمهرجانات وفي شتّى الجهات حتى النائية منها وفي تلك الطفرة من الأنشطة ترشّحتُ لعضوية الهيئة المديرة لاتحاد الكتّاب التونسيين بإقتراح من الأديب محمد العروسي المطوي فتحصّلت على أكثر الأصوات ونلت بالانتخاب أيضا مسؤولية الأمين العام وكانت تلك الهيئة تضمّ الأدباء محمد العروسي المطوي رئيسا والميداني بن صالح نائبا له والهاشمي بلوزة أمين المال وضمّت أيضا الأدباء أبا زيان السعدي وجلول عزونة وسمير العيادي وعبد الحميد خريف ونور الدين بن بلقاسم والتابعي الأخضر والطيب الفقيه وقد عملت تلك الهيئة خاصة على تنشيط النوادي في مقر الإتحاد وعلى إنتظام إصدار مجلة ـ المسار ـ وعلى فتح الفروع في الجهات التي يتوفّر فيها الحدّ الأدنى من الأعضاء وعلى المشاركة في اللجان الخاصة بالكتاب والسّينما والمسرح ضمن وزارة الثقافة وقد

جعلنا هدفنا الأكبر هو إستضافة مؤتمر الإتحاد العام للأدباء العرب ومهرجان الشعر العربي بتونس وقد ضمّ إتحاد الكتّاب التونسيين وقتذاك أغلبية الأدباء والشعراء على إختلاف مراجعهم الفكرية والأدبية وعلى تنوّع ألوانهم السياسية وتوالي أجيالهم ممّا أتاح لي التعرّف على الأدباء التونسيين وربط صداقات مع الكثير منهم وفي ذلك السّياق من النّشاط الزّاخر ومن بينه إنعقاد مؤتمر الأدباء العرب ونيل تونس رئاسته في شخص الأديب محمد العروسي المطوي ثمّ تنظيم الملتقى الأوّل للشعراء العرب جاءتني دعوة من رئاسة الجمهورية لحضور موكب اليوم الوطني للثقافة الذي إعتبرناه حينذاك مكسبا للثقافة والمثقّفين ونحن نعيش غمرة حركة النشر واللقاءات الأدبية بعد سنوات عديدة من الكبت والتهميش التي لم يستفد منها إلا الأدباء والمثقّفون المُوالون للنّظام ولكن لم أكن أدري وأنا أدخل قصر قرطاج ثمّ وأنا أغادره بعد أن صافح بن علي الجميع ـ أنّ حليمة ستعود بعد سنوات إلى عادتها القديمة فقد أضحى حول نظام ـ العهد الجديد ـ زمرةٌ كبيرة من المثقفين والأدباء والفنانين الموالين هي التي إستفادت من مجالات وزارة الثقافة ودعمها وإحتكرت مواردها وأنشطتها فلم تُبق لنا إلا النّزر القليل الذي لا يفي بتحقيق برامجنا ضمن بعض الجمعيات والنوادي الثقافية تلك التي سَنة بعد سنة بدأت تنغلق على عدد قليل من المنتسبين والروّاد وصارت برامجها تسير على إيقاع الجوقة الرّسمية شأن جميع

الأنشطة الثقافية وغيرها في بقية البلدان العربية التي زرت الكثير منها فإستنتجتُ أن مسألة إستقلالية المثقف العربي عن السلطة هي أمر نسبيّ جدا وحتى بعض المثقفين والأدباء الذين تمكنوا من الإقامة في البلدان الغربية نجدهم موالين لهذه الجهة أو تلك سواء كانت منظمات وجمعيات أو لوبيّات وغيرها فليس من باب الخير المحض والمحبّة الصّافية للثقافة تحتضنهم تلك الدول وتدعمهم وتمنحهم الإمتيازات والجوائز.

كانت مرحلة إنتسابي إلى الهيئة المديرة لإتحاد الكتّاب التونسيين في مناسبتين الأولى في فترة رئاسة الأديب محمد العروسي المطوي والثانية في فترة رئاسة الشاعر الميداني بن صالح قد أتاحت لي الفرصة لمعرفة أحوال الأدباء والمثقفين التونسيين والعرب من غير نصوصهم أيضا فوقفتُ على أمزجتهم وعلى بعض تفاصيل سلوكياتهم لذلك إستنتجتُ أنّه من الأحسن بالنسبة للكثير منهم أن نقرأ لهم ولا نعرفهم عن كثب فعدد هائل من الأدباء والشّعراء والمثقّفين يكتبون ويصرّحون بعكس ما يفعلون لأن غايتهم تتمثّل في كسب المال و الشّهرة أو نيل الحظوة والمنافع أمّا القِيمُ والمبادئ فإنّها لا تبدو لديهم إلا في نصوصهم...

كلام ...في كلام

الزّمن كفيل وحده بوضع كل أديب و شاعر في مقامه الجدير به

البحر سماء

مازلتُ أتذكّر موكب الزعيم الحبيب بورقيبة مع زوجته الفرنسية ـ ماتلد ـ في شارع باب الجديد بتونس العاصمة ، كان ذلك في السنة الأولى أو الثانية بعد الإستقلال ورأيته مباشرة مرّات عديدة عند ذهابي أو عودتي من معهد الصادقية حيث كنت أمرّ أمام قصر الحكومة بالقصبة فأصادفه صباحا أو عند منتصف النهار داخلا أو خارجا... مهما إختلفت الآراء حول بورقيبة فإنّي أعتبره مرحلة مهمة من تاريخ تونس المعاصر يجب أخذ العبرة منها فنُطوّر مكتسباتها ونتجنّب سلبياتها فلا النظر إليه نظرة التقديس ولا النظر إليه نظرة الإزدراء بمفيد.

نشأتْ هوايتي للشّعر في سنوات أوج شخصية بورقيبة التي إنخرط كثير من الشعراء التونسيين وغيرهم من الشّعراء العرب في مدحها تحت عنوان الشّعر الوطني لكني كنت مع بعض شعراء جيلي رافضين لذلك النوع من القصائد التي إعتبرناها أقرب إلى التزلّف والمدح الرّخيص منها إلى الوجدان الصّادق فكانت قصائدنا تعبيرا عن هموم الناس وطموحاتهم ورصد لتفاصيل الحياة الصغيرة مع إنحياز واضح لقيم الحريّة والعدل ولعل ذلك ما جعل السلطة تمنع ديواني – نوارة الملح – وغيره من الكتب من التوزيع في تلك السّنوات التي شهدت وقائع دامية مثل واقعة

إضراب جانفي1978 وواقعة الخبز في جانفي 1984 إذْ نشرتُ بعض القصائد والمقالات الثقافية في المجلات والجرائد التي كانت محسوبة على ـ المعارضة ـ التي حضرتُ بعض إجتماعاتها.

لم أكن أنتمي لأي حزب منها فأنا أحبّذ أن أكون مستقلا عن الأحزاب التي لئن نشرتُ في بعض صحفها ومجلاتها أو حضرت بعض ندواتها فذلك من خلال إنخراطي في العمل الثقافي الذي أعتبره عطاء بلا حدود بينما الإلتزام الحزبيّ إنضباط في المواقف وحدٌّ من الآفاق الفكرية وتقييد للحركة وقد أدركت ذلك باكرا فعندما إنتقلت إلى التعليم الثانوي بمعهد الصّادقية سنة 1964 كانت منظمة – الشبيبة المدرسية – القريبة من الحزب السائد وقتها تحاول جلب التلاميذ إلى أنشطتها التي ولئن كانت تبدو ثقافية فإنها تَستغلّ المناسبات الرسمية لحشد التلاميذ إلى الإجتماعات في الساحة أو في قاعة الرياضة كي يستمعوا إلى الخطب وكنت من التلاميذ الذين حضروا بعض تلك المناسبات فوجدت فيها كثيرا من المبالغة عند الحديث عن بورقيبة في سياق تاريخ الحركة الوطنية وذلك ما جعلني أشعر أن تلك المناسبات هي أقرب إلى التزلف والوصولية منها إلى محاضرات في التاريخ وكانت الشبيبة المدرسية وقتذاك تعرض الأفلام مساء الجمعة بالمعهد وصباح الأحد بقاعة البالمريوم الكبيرة بشارع قرطاج فكنت من المواظبين على تلك الأفلام ومن طرائف هواياتي في ذلك العهد، إلى جانب المطالعة ،شغفي بالمراكب الشراعية التي كان يدربنا على الإبحار فيها أستاذ الرياضة الفرنسي فكان يحرص

عـلى مرافقتنـا عـلى مـتن حافلـة خاصـة مـن الصّادقيـة إلى النـادي البحـري في بُحيرة حلـق الـوادي التـي رُدمـت منـذ سـنوات عديـدة.

كنـتُ أقـضي سُـويعاتٍ ممتعـةً وأنـا أغالـب الرّيـح بينـما الـزّورق يمـضي مائـلا يشـقّ عبـاب المـاء قـاب قوسـين أو أدنى مـن أن تلامـس حافّتُـه صفحـة البحـيرة فكنـت أدلي بجسـمي خـارج الحافـة المقابلـة كي أحافـظ عـلى التـوازن وأعجـب مـن نفسـي إلى اليـوم كيـف تَسـنّى لذلـك الصبـيّ الـذي عـاش سـنواته الأولى في أقـاصي الجنـوب عـلى بوّابـة الصحـراء أن يتـولى قيـادة زورق شراعـيّ فحكايتـه مـع البحـر حكايـة عجيبـة فلقـد كان في فيـافي الجنـوب يتخيـل البحـر صحـراء مـن المـاء الأزرق المالـح ولم يَـدر كيـف تخيّلـه سـماء مقلوبـة وقـد عـرف البحـر لأول مـرة مـن خـلال جرعـة تناولهـا مـن جَـرّة صغـيرة مُلئـت بمـاء البحـر جـاءت بهـا إحـدى العائـلات مـن أقاربـه كتُحفـة أو كهديـة عندمـا عـادت مـن شـاطئ جرجيـس عـلى مـتن عربـة يجرّهـا بغـل قضـت يومـين وليلـة في الذهـاب ومثلهـا في الإيـاب ، وشـاع لـدى القـوم وقتـذاك أن مـاء البحـر يُشـفي مـن عـدة أمـراض بـل وهـو مُضـاد حتـى للسـعة العقـارب ولـدغ الأفاعـي ومـا أكـثر العقـارب والأفاعـي في أصيـاف ذلـك الجنـوب!

أوّل مـا شـاهد البحـر عنـد مدينـة ـ المحـرس ـ قـرب صفاقـس حيـث توقّفـت سـيّارة الأجـرة أثنـاء رحلتـه إلى العاصمـة فلاحـت الشّـمسُ حمـراء مـن وراء الأفـق الأزرق...تمامـا مثلـما تخيّـل البحـرَ سماءً معكوسـةً...

لا ملائكة... ولا شياطين

هـذه المـرّة أسـافر إلى مدينـة النّـور ـ أو مدينـة الجـنّ والملائكـة ـ مثلـما وصفهـا طـه حسـين بدعـوة أثيلـة مـن اِبـني المقيـم في ضاحيـة جنـوب باريـس غـير بعيـد عـن نهـر السّـان حيـث يقيـم أيضـا صديقـي الشـاعر ـ حمـدي الشّريـف ـ الطيّـب الرّفقـة والـذي ألتقـي به يوميّـا لنتجـوّل حينـا ونجلـس حينـا آخـر خائضـين غـمار الذكريـات والشّـعر والتاريـخ والأحداث وملاحظـين المشـاهد العمرانيـة المتنوعة بمـا فيهـا مـن إتقـان ونظـام في مختلـف نواحـي المنطقـة وقـد اِزّيّنـت في أزهـى طبيعتهـا كيـف لا ؟ وهـي ترفـل في أوج أيـام الربيـع فأينـما نظـرتَ وسرحـتَ ببـصرك ألفيـتَ الاِخـضرار والأزهـار.

عرفـتُ صديقـي ـ حَمـدي ـ منـذ أكـثر مـن ثلاثـين عامـا طالبًـا جـادًّا في معهـد فرحـات حشـاد بـرادس فـكان مـن وقتـذاك مُحبّـا لـلأدب وللثقافـة رغـم اِختصاصـه التّقـني وشـاءت الأقـدار أن يتجـدّد الاِتصـال بيننـا بفضـل الأنترنـات حتّـى اِلتقينـا منـذ ثـلاث سـنوات في هـذه الضاحيـة فـإذا ذلـك الشـاب ـ بفضـل عزمـه وصـبره ونباهتـه ـ قـد تمكـن مـن الهجـرة ثـمّ الاِسـتقرار في بـلاد الإفرنـج هـو وعائلتـه في كنـف عيشـة رغـدة لكنـه وهـو الـذي تمكـن مـن التأقلـم في البيئـة الفرنسـية قـد ظـل مرتبطـا بتونـس ومنتميـا إلى تراثـه في جوانبـه المُنيرة والإنسـانية ممّـا جعلـه في نصوصـه الشـعرية التـي يكتبهـا بالعربيـة

مُعبّرا بعفوية وصدق عن حنينه لموطنه ومتمسّكا بجذوره فاللغة العربية بالنّسبة إليه هي الخيط السّحري الذي يشدّه إلى ذاته وهو حريص أيضا على أن يظل أبناؤه وبناته منتمين إلى تونس الخضراء...ولكن!

ولكن عندما رافقتُه مع نَجليْه إلى القُنصلية ليستخرج لهما بطاقة الهويّة التونسية رأيتُ صفّا طويلا وقد وقف فيه الصّغير والشاب والشّيخ من الجنسين بل وفيه الرّضيع وحتّى الذي يجلس في كرسيّ العجلات.

يا سبحان الله هل مكتوب على التونسيّ أن يقف مُنتظرا السّاعات الطّوال في الحرّ والقَرّ سواءً في تونس للحصول على تأشيرة الدخول إلى فرنسا أو في فرنسا أمام القنصلية التونسية لِاستخراج مختلف أوراقه الوطنية فلا عزاء للتونسي لأنه غريب مرتين

غريب في وطنه

وغريب خارج وطنه...

عندما نُصبح لا نرى تونسيا واحدا يقف منتظرا أمام السّفارات الأجنبية في تونس وعندما نُمسي لا نرى تونسيا واحدا يقف منتظرا أمام سفارة أو قنصلية تونسية في بقية بلدان العالم يوم ذاك يمكن أن نتحدّث عن الكرامة الوطنية.

في بلاد الإفرنج

في يوم ربيعيّ باذخ كنت أتفسّح في مدينة – إفري – من ضواحي باريس الجنوبية وقد شدّ اِنتباهي النظام والنظافة والإتقان فقد لاحظت ذلك في جميع ما رأيته ومررت به... ناهيك عن الزهور المنسقة أحسن تنسيق في الساحات والمماشي وحتى في وسط الطرقات وفي النوافذ والشّرفات وما كدت أرفع بصري حتى قابلتني صومعة شاهقة مربعة الشكل على نمط أغلب صوامع بلاد المغرب تبدو حديثة البناء فقطعت الشارع إليها من الممرّ المخصص للمترجّلين بعد أن ضغطت على زرّ العمود فما كانت إلا لحظات حتى اِشتعل الضوء الأخضر وتوقف سيل السيارات فاسحا لي المجال...يا الله ماهذا الاِحترام وهذا الاِنضباط..! هو كذلك هذا المجتمع الذي نشأ منذ أجيال على قيم الحرية وتعادلية الحقّ والواجب فالقانون فوق الجميع والذي لا يطبّقه راضيا ينطبق عليه صاغرا... هنا حرية العقيدة والفكر والمذهب والتعبير والهواية ونمط الحياة يمارسها الجميع بدون اِستثناء فحقّ الاِختلاف وضرورة قبول الآخر واقع معاش بمعنى – لكم دينكم ولي دين – فقد مررت بعديد الكنائس ذات المذاهب المختلفة ورأيت بالقرب منها معبدا بوذيا كبيرا وشاهدت معلقات كثيرة فيها دعوات إلى اِجتماعات واِحتفالات متنوعة الملل والنّحل ومن بين تلك المعلقات واحدة لفتت اِنتباهي حقا عندما قرأت فيها

أنّ رئيس البلدية يدعو مواطنيه للإتصال به – عند الحاجة – في مكتبه مرة في الأسبوع مساء كل يوم جمعة من الخامسة إلى السادسة والنصف وقد نشر رقم هاتفه ليكون عند الطلب في خدمة الجميع أين نحن من هذه المدنية ؟شتّان ما بيننا وبين ذويها ! لكَم كتَب السّابقون قبلي عنهم من عهد الطهطاوي وإبن أبي الضياف إلى عهد طه حسين وبيرم التونسي وغيرهم ولكن مازالت مجتمعاتنا المغاربية والعربية بعيدة عما نصبو إليه من حياة كريمة ورقيّ شامل.

ثمّةَ ملاحظة إسترعت إنتباهي فقد شعرت في كثير من المناسبات بشيء من الرّيبة لدى عامة القوم عند مخالطتهم للعرب والمسلمين أو الحديث عنهم في البرامج التلفزيونية وقد أصبح ذلك واضحا ومباشرا بعد العمليات الإرهابية المتوالية في بلدانهم على مدى السنوات الأخيرة تلك العمليات التي لا نعرف حقيقة الواقفين وراءها والخيوط المخفية التي تحركها ولمصلحة أي جهة تقوم بمثل تلك الأعمال الإرهابية التي كان الأبرياء والذين يناصرون القضايا العادلة من ضحاياها فلقد خرجت الملايين أفواجا أفواجا في عواصم عديد البلدان الغربية ومدنها مرات كثيرة مناصرين نضالات الشعوب المستضعَفة ومناهضين لسياسة حكومات تلك البلدان الغربية حيث تمتّع الكثير من العرب والمسلمين المضطهدين في بلدانهم بالحصانة وبكرم الضيافة في حرية وإحترام ولكن لست أدري بأي مقابل وبأيّ ثمن...؟

التاريخ يحدثنا أنّ الحضارة العربية الإسلامية قد سادت وترسّخت في كثير من المناطق بفضل نشر ألوية السلام والإخاء والعدل والصدق والوفاء مع قيم العلم والعمل بين تلك الشّعوب والأمم فلو أنّ الجاليات الوافدة على بلاد الإفرنج جيلا بعد جيل عملت بتلك المبادئ وسخّرت تلك الأموال الطائلة في نشر اللغة والثقافة العربية وكانت مثالا للعمل والنّزاهة والمحبّة والتسامح في تلك المجتمعات الغربية لتغيّرت نظرتها إلينا ولصرنا قُدوة لها ونموذجا يُحتذى...

تعيش تلك المجتمعات أزمات حضارية متداخلة ممّا جعل بعضَ القوم فيها يبحثون عن الخلاص في الحضارات الشّرقية الأخرى...ولكن مع الأسف نحن لم ننجح في التأثير فيهم من ناحية ولم نُوفّق في الإستفادة من إنجازاتهم إلا بقدر قليل ثم إننا لم نُفلح إلا في النّسج على منوال الفاسد في تاريخنا والأخذ من الرّديء في حضارتهم لكأنَّ حَوَلا أصاب عُيوننا!

الكُسكسي

ما كدتُ أخطو بضعَ خطوات على العُشب اليانع لأصِلَ إلى ضفاف البحيرة الصّغيرة في المنتزه حتى صاح بي حفيدي الذي بلغ منتصف سنته الخامسة وفي لهجة العتاب الشّديد بلغة فرنسية سلسة قائلا ـ لا ندوس الأعشاب أبدا فقد نقتل الأزهار!

وأشار إلى المَمرّ المخصّص الذي يُوصل إلى البحيرة غير بعيد

منا فأسلمت له يدي ليقودني وسرعان ما زجره أبوه قائلا ـ ما هكذا تخاطب جدّك ! فقلت له دَعهُ يعبّر كما يريد ومعه الحقّ فلقد تعلّم في روضة الأطفال هذه التوصيات في المحافظة على الطبيعة وأنا سعيد بملاحظته لي وحماسه في الذّود عنها.

شتّان بين تربيتنا وتربية بلاد الإفرنج والبَونُ أكبر وأكبر بين تربيتنا وتربية اليابان أو الصّين فهناك وهنالك يُنشِئون أطفالهم ـ بدرجة أولى ـ على قيم الإنضباط والعمل والمبادرة والتعاون والإبتكار أمّا رياض الأطفال لدينا فهي مُحتشدات كي يحبس الأولياء فيها أطفالهم ليستريحوا من شَغبهم وهي محلات تجاريّة لأربابها الذين همُّهم الوحيدُ هو الرّبح السّريع والوفير بلا رقيب ولا نظير وبلا برامج مدروسة لتحقيق ما نصبو إليه من إعتزاز بشخصيتنا المتأصّلة في القيم الإنسانية والثريّة بأبعادها كي يتسنّى لها التفاعل الإيجابي مع بقية الأمم والشّعوب فلقد أضحى العالم قريةً فالمُتجوّل في باريس وضواحيها يلاحظ مختلف الأجناس والألسنة والأزياء والمعتقدات وقد أدرك الفرنسيون أن هذا الإختلاف والتنوّع لا يزيد بلادهم إلا قوّة بالإستفادة من خبرات الوافدين إليهم ومن طاقاتهم ولا يزيد الثقافة الفرنسية إلا إنتشارا في بقية البلدان فينتج عن ذلك الإنتشار سُؤدُدُ فرنسا ويتّسع تأثيرُها ويزيد في العالم الذي تتنافس الأمم فيه بجميع الطرق على كسب خيراته الظاهرة والباطنة والحاضرة والآجلة ومنها الطاقات البديلة ومن أهمّها الطاقة الشمسية المتوفّرة طيلة

كامل شهور السّنة في منطقة شمال إفريقيا القريبة جدّا من أوروبا.

أوروبا...هذه القارة التي يجب أن تكون علاقتنا بها متوازنة متعادلة ولكن لن تكون كذلك إلا إذا نحن إرتقينا بأنفسنا في جميع المجالات وأصلحنا من أمرنا وإنسجمنا في ما بيننا ـ شعوبًا وبلدانا ـ فهي جارتنا وأولى البوّابات التي نُطل منها على العالم والعلم والحضارة وهي تُعتبر إمتدادا لنا عبر التاريخ دائما فَصِلتُنا بها ظلت قائمةً منذ قديم الدّهور وسابق العصور فمنذ الفينيقيين والقرطاجنّيين الذين وصلوا حتّى إلى ضفافها الشمالية ومنذ الرّومان الذين كان بعض أهمّ قياصرتها وفلاسفتها وأدبائها من شمال إفريقيا ومنذ الإمتداد العربي المغربيّ الإسلامي الذي إستوطن الأندلس وصقليّة وجنوب أوروبا ومنذ المدّ العثماني الذي وصل إلى وسط أوروبا ومنذ الحقبة الإستعمارية الأخيرة التي هيمنت فيها أوروبا على أغلب بلداننا ظلت العلاقات بين هذه القارة وبيننا دائمة الأواصر بين جَزر ومدّ وبين تأثير وتأثّر بحسب قوّة هذا أو ذاك فحتّى بعض أنواع المأكولات صارت مشتركة بيننا ومن خصائص الموائد لدينا ولديهم.

لقد تناولت طبقا شهيّا من الكسكسي في مطعم بستراز بورغ سنة 1991 بمناسبة مشاركتي ضمن وفد من الأدباء التونسيين وبدعوة من جمعية ـ بين الضفّتين ـ وقد إخترتُ حينذاك الكسكسي لسببين أوّلا أردت إكتشاف الكسكسي في بلاد الإفرنج

وقد فوجئت بقراءته في قائمة هذا المطعم وثانيا ولعله الأهمّ وهو أنّني كنت يومئذ ذا مَسغبة شديدة فقد تأخّرنا بالغداء ولم نتناول فطور الصّباح فأقبلت إقبالا على ذلك الكسكسي وقد أُحضر لي في قِدر صغير من الفخار فما ألذّ طعمه وقد طُهي بغلال البحر وأين منه قول الأديب صالح القرمادي في إحدى قصائده وقد جعله الشاعر نورالدين صمّود في بيت على بحر المتقارب, كان ذلك آخر عهدنا بأستاذي صالح القرمادي رحمه الله عند الملتقى الثالث للشّعر التونسي بالمركز الثقافي بالحمامات سنة 1983 ـ

أحبّك حبًّا شَهيّا طريّا *** كلحم الخَروف على الكُسكسي.

الصّندوق العجيب

ذات صيف عاد عمّي من تونس العاصمة فتحلّقنا حوله مبتهجين بقدومه وفرحين خاصة بالحلوى ذات القراطيس الملونة التي سندّخرها في جيوبنا باِعتبارها أوراقا نقدية نافذة المفعول بيننا وبعد السّلامات والأسئلة وفتح الحقائب وتوزيع الهدايا على الجميع اِجتمعت النّظرات على صندوق صغير من خشب صقيل له واجهةٌ لمّاعة كالمرآة وبها أربع أو خمس عجلات صغيرة وظلت العيون متسائلة في حيرة ووُجوم عن سرّ هذا الصندوق العجيب إلى أن مدّ عمُّنا يده وأدناه إليه قائلا – هذا هو الرّاديو–

لم أتجاوز حينذاك الخامسة من عمري عندما اِكتشفت

المذياع لأوّل مرّة وعندما أدار عمّي بعض أزراره أضيئت واجهتُه وطفِقتْ أصواتٌ تنطلق منه فسمعتُ لها هَسهسة ونَغنغة سرعان ما أفصحت عن صوت رجل يتحدّث بأناة وثبات بكلام عربي مُبين وبعده اِستمعت إلى موسيقى ليست من الطبل أو المزمار أو النّاي في شيء ، تلك هي نشرة الأخبار ، بعد سنوات عرفت أن ذلك الصّوت هو صوت إذاعة القاهرة أو لندن ،وكنت أحسب أن أناسًا صغارا في حجم النّمل هم الذين يتكلمون ويعيشون في عالم خاص بهم داخل ذلك الصندوق العجيب كيف لا ؟ فقد كنا ننام على غرائب مخلوقات الخرافات وقدراتهم الخارقة.

من وقتئذ صار المذياعُ هو القطب الذي تجتمع حوله العائلة الكبرى مع كؤوس الشّاي من بعد العصر إلى ما بعد المغرب غير أنّه بعد أيام قليلة صرنا نستقبل أقرباء لم نعهدهم ورجالا آخرين لا نعرفهم أَمْسَوْا يجلسون في ناحية حوشنا الكبير مع عمّي ليُنصتوا إلى المذياع حينا ثم يخوضُون في حديث لم أكن أعي منه شيئا غير أنّي سمعت كلمات تتكرّر على ألسنتهم كثيرا من بينها – الجزائر ـ فرنسا ـ بورقيبة ـ بن يوسف ـ عبد الناصر ـ وبريطانيا التي لم أدرك معناها وقتذاك واِجتهدت أن تكون شيئا بين الطين والبطن ،ليس غريبا عن إبداعات السّريالية إذن!

بعد سنوات قليلة قصدت الإذاعة التونسية وأنا لم أتجاوز الرابعة عشرة وسلّمت ظرفا إلى برنامج – جنّة الأطفال – فيه قصيدة أو كالقصيدة وكم سُررتُ عندما قرأ أحد الأطفال المشاركين

في البرنامج مقطعا منها وشجّعتني السيّدة- علياء – التي اِحتضنت براعم واعدةً في مجالات عديدة خاصة في الأدب والمسرح والموسيقى مضت بعد ذلك سنواتٌ تِلوَ سنوات ودخلتُ أستُديو الإذاعة فقلتُ في نفسي إنّه لابدّ أن يصغُر حجمي كثيرا كي أتمكّن من النّفاذ إلى ذلك الصّندوق العجيب لأكتشف أسرار عالم النّمل.

العزيزُ اِبنُ الأعزّ

أكتب إليكَ يا حفيدي هذه الكلمات عسى أن تقرأها بعد سنوات ذات يوم فتستوعبَ معانيَها وأبعادَها، ورغم أنّك الآن في سَنتك الخامسةِ من عُمرك وأنا في الثالثة والستّين، فإنّني أجدُ رغبةً واِنشراحًا بل مُتعةً في الكتابة إليك،وكم أشعُر بالمسرّة عندما أستمع إليك وأنت تُعبّر طَلْقَ اللسان في نبرات عذبة بلُغة بُودلير وبنبرات شارل أزنفُور لذلك أتمنّى أن أسمعك كذلك فصيحا بلغة المتنبّي ونبرات طهَ حسين وبلغات العالم الأخرى أيضا لأنَ العالم أصبح قرية لابدّ أن يفهم الناس في مختلف نواحيها بعضهم بعضا ليَسُود بينهم السّلام والوئام.

في مثل سِنّك هذا يا عزيزي كنتُ أجدُ صعوبة في الكلام خاصة عند حديثي مع الناس الذين من غير عائلتي ومعارفي فقد كنتُ أتلعثم في نطق الحروف التي أكاد أختنق بها فأشعر بالضّيق والحرج لذلك كنتُ إلى الصّمت أميل ولم أتخلّص من هذه العاهة إلا عند آخر سنوات تعليمي الثانوي فأنا اليوم

عندما أستمع إليك وأنت تُزقزق وتُوَرْوِرُ بالكلمات في طلاقة واِنسياب أشعر بسعادة كبرى إذ أنك لم تَرث تلك العاهة من جدّك والحمدُ لله!

ما أسعدني بك وأنتَ تذهب في مَرح وحُبور إلى روضة الأطفال القريبة من منزلك بإحدى الضواحي الجميلة الجنوبية لباريس حيث تمرّ على الحدائق الغَنّاء فترى العُشب اليانع والعصافير وأصناف الأشجار والنّاس يسيرون في نظام واِحترام فلقد كنتُ يا عزيزي في مثل سنّك أخرج من الغار إلى فضاء البادية الطّلق مع أبناء عمومتي لنقضي اليوم في اللعب مرة بالطين نصنع منه ـ بعد الحفر والتنقية والعَجْن ـ خيولا وعرباتٍ وسيّارات وجرّارات ومرّة نَضفِر من سعف الجريد ساعات نضعُها على مَعاصمنا ونصنع من سعف النخيل أيضا مراوح نجعلها على إبر النّخل كالمغزل فتدور بالهواء عندما نجري بها فنحسب أنفسنا طائرات تُحلق في السّماء... ومرّة نجعل من جريد النخل بعد شدّها بخيط كاللّجام أحصنةً نمتطيها فنركض حُفاةً غير عابئين بالحجر يتطاير من تحت أقدامنا فنجُوب الأودية والتلال والوهاد كأننا على سرج سابح في كوكبة من عِتاق الخيل الجامحة في البراري.

سأظل أذكر دائما لقائي بك أوّل مرّة والذي كان بمطار ـ تونس قرطاج ـ في أوائل صيف سنة 2011 وعُمْرُك وقتذاك حوالي تسعةَ أشهر عندما اِصطحَبَتْكَ أمُّك من باريس وأتذكر ـ وما أجملَها

من ذكرى ـ أنّك رغم عناء السّفر وأزيز الطائرة كنتَ مُبتسما جَذلان تُرفرفُ في أحضانها, ومن الوهلة الأولى إذْ أشرتُ إليك ـ هيّا إليَّ ـ ألقيتَ بنفسك في صدري فضمَمتُك بشوق وحنان لكأنّي أضُمّ فيكَ زيادًا وأبِي وأمّي ومكثتَ مُطمئنا جَذلانَ تُعابثُ لحيتي ونظارتي بأناملك اللطيفة فما أروعَكَ من حفيدٍ وما أسعدني بك!

جالتْ وقتَها في خاطري لقطاتٌ سريعةٌ من الذكريات منها حين ودّعتُ فيها أمّي وأنا في السّادسة فقد سافرتُ من ـ بئر الكرمة ـ في رُبوع غمراسن إلى ضاحية سيدي رزيق بتونس العاصمة فكنت أذهب إلى والدي في دكان الفطائر بشارع الحرية قُرب الإذاعة صباح كل يوم أحَد بمعيّة عمّي الأصغر لألقاهُ بعض السُويعات وهو يعمل بجِدّ ثم يُودّعني بعد أن يشتريَ لي الشكلاطة والجُبن ويدُسّ في جيبي بعض القطع النقدية ثمّ أعود حزينا وحيدا في قطار المساء...

تذَكرتُ أيضا عِناقَ إبني ـ وحيدي ـ وأنا أودّعُه عند سَفره للدّراسة في فرنسا حيث الآفاق الرّحبةُ والمجالات العديدةُ تلك التي ضاقت بها البلاد فكأنّك يا عزيزي قد عوّضتَ لي في تلك اللحظات أشواقي إليهم جميعا عندما طِرتَ إليَّ كحمام رَفرف ثمّ حطّ على أيْكِهِ على ساعدي وقد ضمّنتُ ذلك اللقاء في قصيد كتبته بعد سنة من التأمّل في كلماته.

بهذه المناسبة لابدّ ان أذكر لكَ أوّل لقاء بيني وبين أمّك التي حدّثني عنها أبوك ذات يوم أنه اِختار زميلةً له لتكون رفيقته

في إنجاز بحث السنة الأخيرة من دراسة الهندسة الإعلامية بتونس ومن وقتِها جعل دائمَ الحديث عنها ويلهَجُ بذِكرها في كل مناسبة ويُثني على صفاتها بالإعجاب وكان يحادثها من غرفته بِاستمرار للتّشاور في ذلك البحث وكان أحيانا يدعوني لردّ تحيّاتها إليّ فاِكتشفتُ أنها على قدر كبير من اللطف والذكاء والعزيمة ولا أنسى مساء السبت 8 فيفري2008 فهو يوم اِفتتاح معرض ـ ألوان على كلمات ـ لصديقي الرسّام عثمان البَبّة ـ بنادي الطاهر الحداد ـ وقد اِستلهم لوحاتِهِ من بعض قصائدي وترجمَها وعلّقها إلى جانبها، وبالمُصادفة أعلنت الكليّةُ عصرَ ذلك اليوم نتائج الاِمتحان النّهائي فنجحا معًا بامتياز وأقبلا معًا مُسرعيْن إلى المعرض ففرحتُ بهما كثيرا...إنّه يومٌ سعيد حقّا من أبهج أيّام حياتي ففيه نجح اِبني وفيه رأيت قصائدي مُترجمَةً ومَرسومَةً وفي ذلك اليوم أيضا رزقني الله فيه بابنةٍ رائعة... هي أمّك!

سأحدثك عن يومك الأوّل الذي دخلتَ فيه روضة الأطفال عندما رافقتك إليها, فسِرتُ سعيدا بك وقد تخطيتَ مرحلة الرّضاعة وأصبحتَ تستطيع القيام بشؤونك الصّغيرة وحدك وكنتَ تسبقني فرحا حاملا حقيبتك على ظهرك في فخر وعزم فتذكّرتُ الصّباح الذي أودعتُ فيه أباك روضة الأطفال برادس وهو في نفس سنّك تقريبا فكم كان مبتهجا وهو يسير على رصيف الشارع الطويل بجانب الأشجار في اِتجاه البحر... كان ذلك الشارع الكبير في رادس وقتها خاليا من المقاهي والدكاكين

والسيارات والعمارات فكنا نستمتع بالسّير فيه ذهابا و إيابا بجانب حدائق الفيلات ذات المعمار الأوروبي فنرى قرميد السّطوح يلوح أحمر بين اِخضرار الأشجار المثمرة وبياض الياسمين المُنداح على الأسيجة مع مختلف الأزهار وننتشي بالهواء النقيّ وبسنفونية الألوان والعصافير في الصّباح والمساء.

لا أذكر أبدا أن أباك أبدى كسلا أو رفضًا للذهاب إلى روضة الأطفال الجميلة وسط حديقة كبيرة فكان يسعى إليها رغم الأمطار والرياح والبرد الشديد فيشدّ على يدي قائلا -هيّا بنا- وهي العبارة التي ما زلنا نردّدها إلى اليوم كتعبير عن العزم والأمل وكنا نقطع المسافة بسَرد الحكايات كحكاية الملك والصيّاد وحكاية الأسد والأرنب وغيرهما من الحكايات العجيبة والمشوّقة ممّا طالعته وأضيف إليها من خيالي فنجد المتعة معا هو بالإنصات بشغف وأنا بمعايشتي لتلك الشخصيات والوقائع كما تعلّمنا ترتيب الأرقام بحساب الأشجار... فما أشبهَ اليوم بالأمس عندما أراك أنتَ أيضا تُحبّ الذهاب إلى روضتك وتُصرّ على جذب حقيبتك بنفسك بل وتُسابقني أيضا... كم أنا سعيد بك إذ أرى فيك عزم أبيك وطموح أمّك.

الشّمس والقمر

رغم أن والدي رحمه الله لم يدرس إلا أربع سنوات في التعليم الإبتدائي إلا أنه كان على قدر كبير من الثقافة بفضل شغفه

الشّديد بالمطالعة وكان كثير الإستشهاد بشعر المتنبّي وعنترة وحاتم الطائيّ والرّصافي وشوقي وذِكر أخبارهم وطرائفهم ناهيك عن الإستشهاد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والسّيرة وأخبار الحرب العالمية الثانية وحرب فلسطين والوقائع التي دارت بين الثوّار التونسيين والجيش الفرنسي في الجنوب بالإضافة إلى أخبار بلدة غمراسن عبر التاريخ وكان كثير الإعجاب بالإمام اِبن عرفة الذي يعتبره مثالا في طلب العلم والاِجتهاد وقد واظب أبي رحمه الله سنوات عديدة على دروس الشيخ الزغواني التي كان يلقيها مساء كل يوم أحد بمسجد حيّ الحجّامين بتونس المدينة ,وقد رافقتُه أحيانا ,وبذلك أدركتُ آخر شيوخ الزيتونة الأفذاذ ونهلت من علمه فهو يقرأ الآية ويذكر موضعها وسبب نزولها ويفسرها على منهج القدامى لكنه يستخلص منها العبرة لإصلاح أحوال المجتمع في الختام.

كان والدي رحمه الله مثال المسلم في إيمانه وصَلاته وصيامه وفي أخلاقه وفي عمله ومعاملاته فكان متسامحا كريما باسما حنونا حريصا على صلة أقربائه ومعارفه وكان صبورا متنازلا عن حقّه يسعى للخير والصلاح وعمِل طول حياته على الرّفع من شأن العائلة بالتشجيع على العلم وعلى إصلاح ذات البين وعلى مكارم الأخلاق.

رحم الله والدي

كان من أنصار فريق الترجّي الرياضي ولكنّه ما كان يُعلن ذلك لطفا منه لأنّي كنت من أنصار فريق النادي الإفريقي المنافس اللّدود لفريقه فإذا دارت المقابلة بينهما تراه يذكر محاسن الفريقين ولا يُبدي فرحه إذا إنتصر فريقه بحضوري.

ومن حُبّه الكبير لي وحرصه الشّديد على صحّتي أنه إستقدمني إلى العاصمة وأنا في الثالثة من عمري على إثر إصابتي بالرّمد فمكثتُ شهورا طويلة للمعالجة لدى عائلة عمّي في أحد أحياء تونس العتيقة التي أحببتها منذ ذلك العهد فمازالتْ ملامحها عالقة في خيالي إلى اليوم من بائعي الغلال على عربات كانوا يدفعونها أمامهم وهم ينادون على غلال كل فصل بأغانيهم الجميلة , إلى شوارع تونس وأنهجها وأزقتّها النظيفة... وكم كان صوت الأذان الشجيّ عذبا وهو يسري بلا مكبّر صوت طبعا...

مهما تحدّثت عن أبي فلن أحيط بخصاله التي تميّزهُ و يُقِرُّ بها كلُّ مَن عرفه عن قُرب أو بُعدٍ فالفضل له في جميع ما إكتسبتُهُ في حياتي فلقد إنتشلني من شَظف العيش البدائيّ في أقاصي الجنوب إلى نِعمة الحياة في العاصمة كأنّه أراد أن يُجنّبني الصّعاب والآلام التي لقِيَهَا في طفولته فقد عاش لدى جدّه لأمّه بعيدا عن أبيه المُغترب في تونس العاصمةِ ولمّا بلغ الخامسة أو السّادسة عاش كاليتيم لدى عمّه الذي كفله وكان من الأطفال الأوائل الذين دخلوا المدرسة الابتدائية بغُمراسن فدرس فيها أربع سنواتٍ لكنّه لم يستطع مُواصلة تعليمه بسبب قساوة الظروف إذ أنّه

لم يجد أحدا يستخرج له بطاقة الولادة من مدينة تَطَاوين المجاورة حيثُ مركز الإدارة فقصد العاصمة وهو يافعٌ للعمل في دكاكين الفطائر والحلويات التقليدية حتى أضحى بعد سنوات قليلة من أمهر الصنائعيين فيها وكان المُعلّم الأوّل في أكبر محلاتها بباب البحر وبشارع الحريّة حيثُ تتطلب تلك المحلاتُ الإتقانَ والكياسة والنظافة لأنها في الأحياء الأوروبية ولأن مُعظم زبائنها من الجاليات الفرنسية والإيطالية وحتّى الألمانية والأمريكية في فترة الحرب العالمية الثانية وهذا ما جعله يقرأ و يكتب بالفرنسية والإيطالية و يفهم بعض الكلمات العبرية وكان يهوى في شبابه الدرّاجات والأفلام وكرة القدم بالإضافة إلى الفروسية والصّيد وهما من بقايا هوايات الجنوب وكان أبي أيضا يطرب عند سماعه الطبل والمزمار.

رحم الله أبي

كان عَطوفا رفيقًا بأخويه الأصغَرَيْن وسَعى إلى أن يُواصلا دراستَهما وظلّ حَفيّا بهما فكانا سَندا له في مَرضه الأخير وعند الشدائد من بعده وكان كثير الإحترام لأخيه الأكبر يُجلّه و يستشيره في أبسط الأمور وكان بارّا بأختيه اللتين تَرمّلتا بخمسة أطفال لكل منهما فظل لهما نِعمَ الأخ وبمثابة الأب لأبنائهما وكان منزلنا دائم الحركة عامرا بالأقارب وحتّى بالأباعد ليلا نهارا وفي جميع الفصول وعلى مدى السّنين الطّوال فما كان يتبرّمُ أبي ولا يَتجهّمُ بل نراه مُستبشِرًا دائمًا ومُرحّبًا بالجميع

واحسرتاهُ على تلك الأعوام التي كان الشّمل يجتمع حول أبي هنا لابدّ أن أشيد بفضل أمّي التي كان يأخذ منها التّعبُ مأخذا شديدا أحيانا فإذا ما أحسّ منها ذلك شَدّ مِنْ صَبرها وعزمها ببعض الآيات والأحاديث والأشعار وفي الواقع ما كان أبي ليستمرّ على سيرته تلك لولا وقوفُ أمّي إلى جانبه وتحمّلها أعباء المنزل فرحماك يا أمّي

رَحمَاكِ يا أمّي

هيفاءُ باسمةٌ رشيقةٌ أنيقةٌ سواء أنتِ في لباس بادية الجنوب أوفي الأزياء التقليدية لنساء العاصمة فحيثما حَللتِ حَل معك الجمال والأنسُ والسّرور...

دائمةُ الإبتسام والبهجة أنتِ

ما أعظمَك يا أمّي في حنانك على الجميع صِغارا وكبارا سواءً من أسرتك أو من أسرة أبي وحتّى على غيرهم من الأحباب والمعارف.

رحماكِ يا أمَيمةُ

ما تزال أغانيك على الرّحى وفي الأعراس تبعثُ في وجداني شُجونَ الحنينِ إليكِ

ما يزال شذاكِ الطيّبُ يُنعشُ رُوحي

ما يزال مَذاقُ أناملكِ في عَجين الرّغيف والكُسكسي أشهى ما في الدّنيا

وماذا بقيَ لي من الدّنيا بعد رحيلك يا أميمةُ...يا مَّا ....

في الكنيسة

ذلك الصبيّ الذي قَدِم من أقاصي الجنوب ليدخل إلى المدرسة في غُرّة أكتوبر من سنة1958 بضاحية مِقْرين جنوب العاصمة تونس كان قد مرّ يومَذاك ببناية جليلة شاهقة قيل له إنها الكنيسة فلم يدر وقتها ما الكنيسة...ذلك الصبيّ هاهو اليوم ـ يوم السّبت 4 جانفي 2014 ـ يرتقي درجاتها و يدلف إليها لتكريمه فيها مع ثُلة من الأدباء الأجلاء فيجلس بينهم وَجِلا و يتابع بعينيه الحفل غير أنّه ظل طيلة الوقت يسترجع ذكرياته فإذا هي ورقات يقرأها مُتهجّيا ـ بل مُتلعثما كما كان ـ بين حروف حوادثها وسطورها ما بين آلام وآمال!

ما أروع التّسامح والمحبّة بين الأديان والشّعوب وبين النّاس جميعا فالكنيسة أضحت مركزا ثقافيا زاخرا بالنشاط وقد إنتصب أمامها في الساحة مسجد كبير بمئذنته ذات الهندسة التونسية الأصيلة ترتفع بالأذان شجيّا عذبا بعدما كان ذلك الصبيّ قد سمع الناقوس يدقّ في المكان نفسه منذ سنين عددا في هذه الضاحية التي كانت مُنتجعَ فيلات جميلة ذات حدائق غنّاء تسكنها الطبقة الميسورة من الجاليات الأوروبية زمن الإستعمار الفرنسيّ وقد أدرك الصبيُّ الكثير منهم وهم يسيرون في هندامهم الأنيق بل إن بعضهم كان يبادره ـ بالبانجُور ـ وما زال يذكر أنه

رأى الموز والإجّاص لأول مرة وهي ثمار دانية تتدلى على سياج المنازل مع الورود وشتّى الزهور فكان المَسيرُ ذهابا إلى المدرسة و إيّابا رحلةً ممتعة بالنسبة إلى ذلك الصبيّ الذي فتح عينيه ـ رغم الرّمد ـ على قِفار الجنوب الذي أَلِفَ شَظف العيش فيه...

شكرًا لأبيه الذي طار به كالنّسر من هناك

شكرا لأمّه التي تحمّلت فراقه

شكرا لعمّه الذي أواه

شكرا لزوجة عمّه التي هذّبته

شكرا لجدّته التي رعته

شكرا للمُعلم الأول الذي علمه الحروف

شكرا لجميع مُعلميه وأساتذته

شكرا لجميع الذين قرأ لهم وسمع منهم

شكرا لجميع الذين لهم فضل عليه

شكرا لجميع الذين فتحوا له المجال وشجعوه

ما أكثر ما أخذ وما أقلّ ما أعطى

ذاتَ عصر...ذاتَ ربيع

ذاتَ عَصر من يوم ربيعيّ منْ تلك الأيّام العاصفة التي تَستثني نسائمَه اللطيفةَ، هو يوم في بعض أيّام الرّبيع كأنّه من بقايا عنفوان الشّتاء،اِلتقينا نحن الثلاثةَ ـ عبد المجيد يوسف والحبيب

الزنّاد وأنا ـ أمام المسرح بشارع الحبيب بورقيبة بتونس العاصمة على أمل أن نجدَ خيمة منتصبةً هناك خاصةً بمعرض الكتاب وعلى أمل أن تنتظم فيها أمسيّة شعريّة فكم كنّا مبتهجين بتلك المبادرة التي هبّ إليها الشّاعر الحبيب الزناد من المنستير بمجرّد دعوة عبر الهاتف وجاء يسعى إليها الأديب عبد المجيد يوسف من سوسة أما أنا فقد ركبت القطار من ضاحية رادس واِخترت اللّقاء بهما وببقيّة الشّعراء بَدل أن أحضر بُروتُوكلات الإفتتاح في قصر المعرض.

اِلتقينا أمام المسرح واِبتهجنا عندما قابلتنا الخيمةُ البيضاء الكبيرة ولكن ما لبثنا برهة حتى وصلت إلينا مع صَولات الرّياح العاتية أصوات الموسيقى الصّاخبة فقلنا لعل ذلك من دواعي الإحتفال واِستجلاب الذين يريدون متابعة الأمسية الشعرية ثمّ اِقتربنا من الخيمة فلمْ نر أحدا من المثقّفينْ ولا أحدا من الوزارة أو الإداريينْ فبقينا واجمينْ حتّى جاءنا الخبر اليقينْ عبر الهاتف أنّ الخيمة قد ضُربتْ أوتادُها ورُفعتْ أطنابُها عند آخر الشّارع بعد السّاحةِ الكبرى والسّاعةِ المُنتصبة في وسطها فاِتّجهنا نَمرُق الرّيح بعزم حاثّين الخُطى كي لا نصل عن موعد اِنطلاق الأمسية متأخّرين،خاصّة وأنّ الصّديق عبد المجيد يوسف هو الذي أوكِل إليه تقديمُ الشّعراء وقد اِستبشرنا عندما لاحت لنا الخيمة البيضاء مُنتصبة ولكن أصِبنا بشيء من التعجّب عندما لم نرَ أيّ شخص أو أيّ حركة من حولها فقُلنا لعل الأمسية قد

بـدأت وحـضرت الجماعـة ودخلـت قبلنـا والجميـع فيهـا مـا بـين مُنشِـدين للشّـعر ومُسـتمعين فدلفنـا إلى الخيمـة وَجِلـينَ، ويـا خيبـةَ المَسـعى عندمـا قابلتنـا الآلاتُ والتّجهيزات المُوسـيقية في أحـد الأركان كأعجـاز نخـل هاويـة!

عديـد المكالمـات قـد جـرت حينـذاك بـين الحبيـب الزنّـاد وعبـدِ المجيـد يوسـف مـن جهـة وبـين المسـؤلين والمنسّـقين في معـرض الكتـاب وقـد نَقلاهـا لي وتتلخّـص في أنّـه علينـا أن نلتحـق بمعـرض الكتـاب في ضاحيـة ـ الكـرم ـ بوسـائلنا الخاصّـة فعَقدنـا إذن ـ اجتماعا طارئـا وخاصّـا لبحـث المُسـتجدات ـ بجانـب الخيمـة الخاويـة التـي تُصـارع الرّيـاح العاتيـةَ وبعـد المـداولات السّـريعـة اِتّخذنـا قرارنـا الحاسـم بالإجمـاع وهـو أن نجلـس في أوّل مَقهـى ونعتـبر ذلـك أمسـيتنا الشّـعرية والسّـلام عـلى هـذه الدّعـوة ومـا شَـابهها طالمـا لم يُحسـن القائمـون عـلى معـرض الكتـاب وغـيره مـن الفضـاءات الثقافيـة تنظيـمَ مثـل هـذه المُبـادرات و إيـلاءَ مـا يليـقُ بالشّـعراء والأدبـاء مـا هُـم جديـرون بـه مـن تقديـر واِحـترام ضِمـنَ منهـج ثقـافي جديـد وشـامل.

جلسـنا... ومِـنَ الشّـعر اِنتقلنـا إلى القصّـة فقـد أخـرج عبـد المجيـد يوسـف مـن محفظتـه مجموعتـه القصصيـة الجديـدة ـ وحيدًا...أقطـع هـذا الدّغـل ـ وأهدانـا إيّاهـا في قطـار العـودة فتحـتُ الكتـاب عنـد القصّـة الأخـيرة مـن دُون أن أبـدأ بالمقدّمـة ولا بالقصـة الأولى فتلـك عـادتي في قـراءة الكتـب الإبداعيـة والأديـب عبـد المجيـد يوسـف

صاحـب قلـم مِعطـاء ومتنـوّع فهـو شـاعر وقصـاص وناقـدٌ وباحث في اللّغـة والأسـلوب ومترجـمٌ مـن اللغتـين الفرنسـية والإيطاليـة و إليهـما ممّـا يجعـل كتاباتِـهِ صـادرة عـن معرفـة ومماحكـة.

قـرأتُ الفهـرس فـإذا القصّـة الأخـيرة تحمـل عنـوان ـ جَـريُ الرّياح ـ وبمـا أنـه يـوم ريـح بـدأتُ بقراءتهـا فلـم أجـد الرّيـاح في القصـة ولا عـلى مَهبّهـا ولا خطاهـا إنّمـا وجـدتُ حفيـف نسـمة حُـبّ هبّـت مـن جديـد في لحظـات عابـرة عندمـا التقَـى رجُـل بِامـراة صُدفـةً عـلى قارعـة الطريـق وهـي بصحبـة طفلتهـا فمكثـا يتحادثـان برهـة مـن الزّمـن أثـارت فيهـما الحنـين وعنـد الفـراق فاجـأتِ الطفلـة الرجـل بصفعـة عندمـا هـمّ بقبلـة منهـا فـما كان مـن المـرأة إلا أن اِعتـذرتْ بأحسـنَ منهـا وذلـك بـأن قبّلتـه عـلى خـدّه ثـمّ اِفترقـا، هـي إذن قصـة قصـيرة بأتـمّ معـنى الكلمـة تتجسّـم فيهـا الدعائـم الأساسـية مـن وحـدة في الزّمـان والمـكان والوقائـع وحالـة الشـخصيات ضمـن أسـلوب التركيـز والاِقتضـاب والتصويـر.

قصّـة ـ الحـذاء ـ قرأتهـا أيضـا وأنـا في القطار فقـد اِسـتهواني العنوان لأنـه عنـوان إحـدى قصائـدي القديمـة ولكـنْ شَـتّان بـين حـذاء قصّـة عبـد المجيـد يُوسـف وحـذاءِ قصيدتي،الحـذاءُ في هـذه القصّـة هـو ذاك الـذي خـرج فيـه بعـد مغادرتـه المسـجد قبـل أن يُتـمّ صـلاة الجمعـة فلاحـظ أنّـه غـيرُ حذائـه لضيقـه أمّـا سـبب مغادرتـه المسـجدَ فيعـودُ إلى تَبرّمـهِ مـنَ الرّوائـح الكريهـة ومِمَّـا زاد الطّـين بلّـةً أن نَـزل عـلى قميصـه لعـابُ أحدِهـم حتّـى بلـغ منـهُ مبلغًـا مـن البَلـل لا يُطـاقُ

عند ذلك هرول خارجًا يريدُ خلع القميص وتنظيفَهُ فالقصّة جمعت بين الواقعية والنّقد في أسلوب السّخرية والسّهل المُمتنع وفي قصّة ـ الحاجة ـ ثمّة إبراز للحالة المادية البائسة لأحد الأساتذة حيث يضطر لأخذ قُفلين ومقبض من حقيبة ملقاة في مكان النفايات رآها مع تلاميذه في جولة دراسية وبعد الرجوع إلى المعهد لمحه أحدهم يتسلل عائدا إلى ذلك المكان فظن أن أستاذه رجع لمعاينة المكان لإعداد درس آخر ولكنه ما كان في الحقيقة يعلم أنّ الأستاذ إنما عاد كي يأخذ تلك الحقيبة ليصلح ببعض قطعها ما أصابه الدّهر من حقيبته القديمة.

أمّا القصّة الأولى فهي ـ الشّمسُ في يوم قائظ ـ وهي القصّة القائمة على ـ الطّرز اللغوي ـ أقول ـ الطّرز ـ لأن الكلماتِ فيها مختارةٌ منتقاة بدِقّة ودِرايةٍ حتّى لكأنّ كلّ جملة فيها تُحيلك على نصّ من عيون اللغة العربيّة سواءً قرآنا أو شِعرًا أو نثرًا للجاحظ أو للمعرّي كان وحتّى لميخائيل نعيمة والبشير خريّف والأغاني الشعبيّة التونسيّة فمجال السّجِلات اللغوية في هذه القصّة مُتنوّع ومتعدّد ولعلّ عبدَ المجيد يُوسف أراد بهذه القصّة الإمتاع بالمباني قبل المعاني فقد رصّعها ببراعة بكثير من التّضمينات.

عندما أتممتُ هذه القصّة توقّفَ القطار فوجدتُ نفسي قد تجاوزتُ محطّة رادس...معًا نقطع المسافات...

الدّرس الأخير

وهو في عقده التّاسع رأيناه في أوج عنفوانه وبهاء أَلَقِهِ يُلقي علينا درسا بمناسبة تكريمه في كلية الآداب 9 أفريل بتونس... هو أستاذنا ـ سي توفيق بكار ـ وسِي ـ هي أبلغ تقديري له وأعظم من جميع الألقاب ـ إنه أحد مؤسسي الجامعة التونسية وأحدُ أعمدتها الراسخة والشامخة بفضل سِعة علمه وعُمق اِطلاعه وطرافة اِستنباطاته وتواصل عطائه تدريسا وتأطيرا وتأليفا ومساهمة متميزة في الأنشطة الثقافية على مدى نصف قرن بل يزيد بسنين عددا.

ذلك هو توفيق بكار كما عرفتُه منذ أربعين سنة في وقار وهدوء ولطف أستمع إليه بشغف فإذا صوته ينساب بالعربية اِنسيابا والحروف تنثال في نبراته اِنثيالا وهو يشرح في إمتاع و إبداع باب الحمامة المطوقة من كليلة ودمنة هذا التأليف العابر للحدود وللعصور وقد توقّف ـ سي توفيق ـ عند بعض العبارات الواردة في النص مثل عبارة ـ إخوان الصفاء ـ فرأى أن الإخوان غير الإخوة لأن الإخوة تربط بينهم القربى التي أساسها النّسب بينما الإخوان تربط بينهم القرابة التي أساسها الاِنسجام والتوافق والتعاون والتضامن أمّا كلمة الصّفاء فقد رجع أستاذنا بمعانيها إلى الاِشتقاق اليوناني فاِنتقل بنا من لغة إلى إلى لغة ومن الجغرافيا إلى التاريخ ومن خصائص الحيوان إلى طبائع الإنسان

فـراح يُفـضي بنـا مـن فـنّ إلى فـن حتّـى وصـل بنـا إلى الإسـتنتاج المتمثّـل في أنّ الحيوانـات المتنوّعـة التـي تعاونـت وتضامنـت وتصافـت مـن أجـل خلاصهـا في نـصّ الحمامـة المطوّقَـة يمكـن أن تكـون عـبرة للنـاس أجمعـين كي يتجـاوزوا خلافاتهـم وإختلافاتهـم ليعيشـوا في أمـن ووئـام وينتـصروا عـلى العـدوّ المتربّـص بهـم.

ذلـك هـو الـدّرس الـذي إسـتنبطه أسـتاذنا توفيـق بـكّار مـن شرحـه المُوجَـز لنـص إبـن المقفـع... هـو درس بليـغ ومفيـد لـكأنّي بأسـتاذ الأجيـال أراد بهـذه المناسـبة ـ وفي هـذا الظـرف بالـذات ـ أن يكـون رسـالةً أو وصيّـة للتونسـيين لعلّهـم يتجـاوزون خلافاتهـم مهـما تعـدّدت وتنوّعـت مـن أجـل تحقيـق التضامـن والتعـاون والأمـن, إنـه رأيٌ واضـح وبليـغ للأسـتاذ توفيـق بـكار في خضـمّ إرهاصـات مـا بعـد الثّـورة التونسـية وفي تحدّيـات الوضـع العالمـي الرّاهـن والقائـم عـلى الصراعـات الداميـة, يتمثّـل في أنـه لا خـلاص للإنسـانية إلا في البحـث عـن المنافـع المشـتركة لدفـع خطـر الدمـار الشـامل الـذي يهـدّد الكـون فـما عـلى الإنسـانية جمعـاء أفـرادًا وجماعـاتٍ وشـعوبا وقبائـل وأمـما إلا أن تسـلك سـبُل الإخـاء والتعـاون للعيـش في سـلام وصفـاء مَثَلُهـا مَثَـل الحمامـة وغيرهـا مـن الحيوانـات في هـذا البـاب مـن الكتـاب.

فتحيّـة تقديـر وإكبـار ووفـاء لأسـتاذنا الكبـير توفيـق بـكار وإلى جميـع الأسـاتذة والمعلمـين الذيـن نهلـت مـن علمهـم وأدبهـم فقـد مهّـدوا لي دروب المعرفـة وفتحـوا أمامـي آفاقـا عاليـة مـن بينهـم عـلى

سـبيل الذّكـر أسـتاذي الدكتـور محمـد اليعـلاوي الـذي تتلمـذت عـلى يديـه في كليـة الآداب بتونـس وخاصـة في مسـائل الشـعر القديـم والترجمـة وقـد كان حريصـا عـلى الدقّـة والتحقيـق ويتقبّـل جنوحنـا الشـبابي برحابـة صـدر في ذلـك العهـد الـذي كنـا نبحـث في كتاباتنـا عـن التجديـد ومخالفـة المألـوف وهـو المتعمـق في اللغـة العربيـة وآدابهـا وكـم أنـا فخـور وسـعيد عندمـا فاجـأني منـذ سـنوات قليلـة ـ وقـد التقيتُـه في بيـت الحكمـة ـ بأنـه قـرأ لي بإعجـاب قصيـدة ـ عـروس البحـر ـ التـي عارضـتُ فيهـا قصيـد يـا ليـل الصـبّ متـى غدُهُ...عندها شـعرت أنـني شـاعر حقا...قبـل ذلـك بقليـل رأيتـه مـن بعيـد قادمـا عـلى مهـل فأسرعـت إليـه أريـد أن أشـدّ لـه ربـاط حذائـه خوفًـا مـن أن يتعـثّر بـه فـأبَى ذلـك بـإصرار شـديد فألحـت عليـه قائـلا لـه إني أحـدُ تلاميـذه القدامـى وشرف لي أن أسـاعده ردًّا لجميـل علمـه في صدورنـا فوافـق عـلى مَضـض ثـم طلـب مـني بعدئـذ أن أذكّـره بِاسـمي فتذكّـره وأكـد لي أنـه يتابـع مجلـة ـ الحيـاة الثقافيـة ـ التـي نـشرتُ فيهـا القصيد...إنـه مثـال للعلـم والنزاهـة وللتواضـع أيضـا!

دمُ الـكلام

أغنياتُ أمّي تُهَدْهِدُني
رأسي على رُكبتها
المغنّي الشاعرُ البدويُّ
بمئزره الأبيض

عصاهُ

صوته الجهوريُّ

المَحفل حوله آذانٌ وعيونٌ

...وأنا

لو أنّي وجدت في حَوشِنا المنقور في الصخر قرب بئر الكرمة بأقاصي الجنوب آلةً موسيقية لكنتُ من الموسيقيين؟ ولو أنّي تعرّفت على نوادي السينما لكنت ربما من خلف العدسة العجيبة؟ ولكنني من عائلة بدويّة يسري في عروقها دم الكلام سواء كان ترتيلا أو شعرا أو خرافات وأخبار النجع في حِلّه وترحاله.

في عهد الصّبا و إلى أن صرتُ يافعا كنتُ لا أقدر على الكلام الطّلق الذي يجري على ألسنة الناس بيُسر وسلاسة فكنت ألاقي العنتَ والعذاب في الكلام حرفا حرفا كلمةً كلمة فهذه القاف الحلقيّة تكاد تسُدّ النّفَس حتى سكرات الإختناق وتلك الرّاء اللسانية تجعل من اللسان سوطا يقرع جوف فمي أما الباء الشّفوية فهي الإبرة والخيط وكفّى بي غَمًّا وهَمًّا قال لي سيّدي المعلم مرة بعد طول الإنتظار ـ أُكتبْ المحفوظات عوض سَردها ـ عندئذ إسترحتُ من عناء الكلام وأرحتُ سيدي أيضا من فَأفأتي وتَمْتمتي....

شكرا لك سيّدي ! فقد إكتشفتُ وقتذاك لذّة مداعبة القصيدة وهي تنساب من أناملي عبر القلم والحبر على الورقة...

مضى بي العُمر سريعا فإنحلّت عقدة لساني وصرتُ أكتب القصيدة من وجداني ولكن أيُّ معنى للكلمة في عصر صار كل شيء فيه خاضعا لسلطان الإعلام ؟

أيُّ إحساس للإنسان في عصر كل شيء أضحى يخضع لقاعدة العرض والطلب وفي عصر باتت السيطرة ممكنة على الأذواق والأفكار فأصبحت الشعوب تُقاد فيه إلى ما يُرادُ لها من تدبير وتدمير!

ما كنتُ أحسب يوما أن الحرب العالمية الثالثة قد وقعت وأننا عشنا في رَحاها سنوات من حيث لم نشعر بها هنا أو هناك في شتّى نواحي العالم وأنّ ـ النّمر الورقيّ ـ هكذا كنا نسمّي الولايات المتحدة الأمريكية... أنّ ذلك النمر سيتغوّل وسيلتهم الدُبّ ,دبّ الإتحاد السوفياتي الذي إنهار وتفتّتَ!

أيُّ معنى للشعارات عندما تدوس الدبابات الصينية الطلبة وهم يطالبون بالحرية يا ماوتسونغ؟ وأيّ معنى للثورة عندما يجوع ـ الرّفاق ـ في شِتاء روسيا يا لينين؟

أيّ معنى للديمقراطية وللتقدّم وللحضارة وللحداثة ولشعارات حقوق الإنسان عندما تدعم الدول الغربية أنظمة الإستبداد وتقف ضدّ حركات التحرّر فلا ترى إلا مصالحها ومصالح شركاتها الجشعة ولوبياتها الأخطبوط؟

أيّ معنى للقيم الإنسانية النبيلة عندما تستغل الأيادي الخفيّة

الأديان لحشد البسطاء الطيّبين ولإستباحة الدّماء ونشر الدّمار كي تصل إلى كرسيّ السلطان الذي به تَنهب خيرات الشعوب ؟

أنا من جيل اِكتوى بالهزائم والخيبات وترشّف كل صباح مرارتَها في فنجان القهوة!

أنا مع أولئك الذين يمشون على خريطة عربية كل شيء فيها وحولها يدعو إلى إعادة طرح الأسئلة حول القناعات الجاهزة؟

كان الشاعر العربيّ القديم نبيَّ قومه

له الحكمة والمعرفة

الخيل والليل

الصحراء

وأجمل النساء...

كان الشاعر العربيّ القديم يملك ـ في لغته وبلغته ـ كل ما يرى ولكنه اليوم بائس الحال لا يستطيع أن يملك ما حوله بل لا يملك حتى ما بين يديه من أشياء هو غير قادر بلغته العربية أن يسمّيها بفصاحة ودقّة! كان الشاعر العربيّ القديم متفاعلا مع بيئته ومحيطه وعصره من خلال لغته التي اِستوعبت ما قبلها وما حولها لكنه اليوم يبدو أبكم...أو كالأبكم بسبب قاموسه المحدود الكلمات

إنّ مالك الشّيء وصانعَه يُسمّيه

أمّا فاقدُه فإنه لا يُعطيه ولا يُسمّيه

فكيف نُبدع في عصر حضارة نحن نعيش على هامشها

هل نكتب شهادة اِنقراضنا ؟

دمـــــشق

اللّيل في دمشق حديقة من الياسمين بأضوائها البيضاء المتناثرة على سفح جبل قاسيون ذلك الجبل الذي ورد في بعض الأخبار أنه كان مأوى آمنا لعديد الأنبياء والصالحين ويروى أيضا أن أهل دمشق كانوا إذا اِحتبس القَطْر لديهم أو غلا السّعر عندهم أو جار السلطان عليهم أو كان لأحدهم حاجةٌ تعسّرت عليه صعدوا إلى ـ قاسيون ـ سائلين الله فيستجيب لدعواتهم غير أن الزائر لدمشق اليوم أضحى يرى البناءات قد تسلقت إلى القمة شيئا فشيئا حتى بات جبل قاسيون ينوء بالكتل الإسمنتية فإذا خيم الليل لاح تحت السماء قبة مزهرة بالنجوم وهي تطل من شاهق على هذه المدينة العريقة التي يعود بناؤها إلى أربعة ألاف سنة و رغم توالي العصور وتعاقب الحضارات ما فتئت تنبض بالحياة والجمال وأنا في دمشق تذكّرت ذلك الشعور نفسه الذي ينتابني كلما دخلت المدن العربية القديمة مثل فاس والرباط ومراكش وتلمسان وتونس وصفاقس والقيروان وطرابلس والقاهرة وبغداد والبصرة... إنه شعور الأنس والطمأنينة والألفة مع الجدران والدروب والأبواب فهذه المدن التي زرتها سرت فيها بشوق

عارم كأنني أحد أولئك الذين عاشوا فيها فعاشروها فترة من غابر زمانها.

دمشق يُقال لها بين الإخوة في سوريا " الشام " وهي على سفح جبل قاسيون القائم في سلسة من الجبال تشبه إلى حد بعيد سلاسل الجبال في الجنوب التونسي وتمتدّ على ضفاف نهر بَرَدَى حتى الغُوطة وهي منطقة البساتين وهذا النهر المنحدر مع المدينة أقيمت عليه الجسور والبنايات والساحات أيضا فتراه يظهر حينا ويغيب حينا، لكنه عند وسط المدينة أقيمت عليه النّافورات في أشكال بديعة حيث ترى الماء يدور منها في حلقات تتشابك أو تتوارى أو تتقاطع و تزيدها الأضواء روعة على روعة خاصة أن القمر في أواخر الصيف بنوره الخافت يجعل من السّهر والسير على ضفاف بَرَدى تماهيا في سحر الشرق القديم و كان الليل قد تقدّم بساعتين في نصفه الثاني عندما شرعت في جولتي أكتشف المدينة التي لم تهدأ الحركة فيها وخاصة حركة السيّارات التي تجوب الطرقات وقد اِسترعى اِنتباهي أن بعضها يعود تاريخ صنعها إلى الحرب العالمية الثانية ورغم مرور السنوات فهي تبدو على حالة حسنة تطوي الشوارع طيّا تماما مثل السيارات التي خرجت أخيرا من قرطاس المصانع الحديثة...

ها أنّني أجد نفسي وجها لوجه أمام ـ صلاح الدين الأيّوبي ـ كأنه للتوّ خارج من باب القلعة تحت الأضواء الكاشفة وهي تغمر ساحة الميدان فيتحوّل المشهد فجأة إلى سالف الزمن

العربي المجيد بكل ما في تاريخ صلاح الدين من إباء وشهامة وتسامح...

ينتصب تمثال صلاح الدّين في قلب دمشق بين المدينة العتيقة والمدينة الحديثة فيبدو كأنه متّجه إلى الغُزاة في عُدّته ورجاله يحدوه الشموخ والكبرياء وممّا زاد الجولة الليلية الأولى بهاءً واِنتشاءً تلك الأنوار الخافتة التي تنفثها مصابيح الشوارع والساحات حتى لكأنك تحسبها شموعا على الطريق بينما الفوانيس الخضراء المتلألئة من الصوامع تغمر النفس بالأنس والسّكينة.

عندما هممت بخلع حذائي على عتبة باب الجامع الأموي بدمشق لاحت منّي نظرة إلى الفضاء الرّحب فيه فإذا حمامات يُرفرفن ويَقَعن على البلاط لِالتقاط الحَبَّ ثمّ ينطلقن في سِرب عاليا وبعيدا... ربّما سيمضين في رحلتهن تلك إلى صَحن جامع الزيتونة في تونس فنفس هذا الحمام كنت أراه يحوم هناك...

الجامع الأمويّ مُقام على هيكل روماني قديم فالمتأمّل الحصيف فيه كأنه يقرأ في مختلف السّواري والصخور والنّقوش كتابا مفتوحا فما أجمله من مَعلم عظيم البُنيان ، شاهق الجدران، فسيح الأرجاء، شامخ المآذن ، متنوّع الزخارف من ذهب الفسيفساء إلى هندسة الأرجاء، ومن المرمر والجليز و من النّقش على الحجر إلى الزخرفة على النحاس والخشب ومن التّخاريم على تيجان الأعمدة والأقواس إلى الصّور والرسوم على الجدران، فكأنّ الجامع الأموي مُتحَف للعصور

الغابرة فكل زمن يُبقي عليه خصائصه وآثاره من الذكريات المجيدة ومن الأحداث الأليمة ما يترك الحسرة واللّوعة مثلما الحال عندما نزور في أحد أرجائه مقام الحسين ولعل في كل هذا وذاك عبرة للغادي والرائح...

قيل إن الوليد بن عبد الملك أنفق في بنائه أواخرَ القرن الأول الهجري خراج سبع سنوات من دولة بني أمية فجاء على غاية من التّرف والبذخ غير أنّ الخليفة التقيّ عمر بن عبد العزيز اِستنكر كل ذلك الإسراف وكاد يأمر بنزع نفائسه وردّها إلى بيت مال المسلمين.

ويُروى أنه أنشِئت في هذا الجامع ساعاتٌ يعود بعضها إلى القرن الرابع الهجري وقد جُعلت على شكل بديع وهندسة فريدة فكانت إذا تمّت الساعةُ خرجت حيّةٌ فصاحت العصافير وصاح الغراب وسقطت بعدئذ حصاة في الطست... بينما كنت أطوف بالجامع الأموي من ناحية بعض الأسواق التي تبيع الذّهب والأشياء المستظرفة إذْ بي أسمع وأشاهد أحد المبشّرين المسيحيين يدعو بأعلى صوته إلى المسيح بن مريم ويتلو من حين لأخر من الكتاب المقدس والنّاس من حوله جيئةً وذهابا أو هُم منشغلون في دكاكينهم كأن الأمر من عادة المكان فعجِبتُ لروح التّسامح بين المسجد و الكنيسة.. علمت حينئذ أن البلاد الشامية ظلت محافظة منذ القديم على الألفة والاِحترام بين مختلف العقائد فيها ولعلّ ذلك يعود إلى مآثر صلاح الدين الأيّوبي الذي يُعتبر مثالا على إرادة التحرّر وعلى

قيم الإنسانية الخالدة... فتراثنا من هذه الناحية زاهر ورائع.

عندما عُدت إلى الفندق مررتُ بالأسواق الدّمشقية العتيقة فلاحظت أنها تُشبه الأسواق التقليدية في تونس من حيث التخطيط، و الاِختصاص ومن حيث طبائع النّاس، كيف لا ؟ والفينيقيون هم الذين جاؤوا إلى تونس من هذه الربوع ثم من بعدهم قَدِم العرب إلى بلاد الأمازيغ منطلقين من دمشق إلى إفريقية ومنها إلى الأندلس فالثقافة العربية تمتاز بالتمازج والتواصل بين المحلّي والوافد و ما التنوّع و الاِختلاف فيها إلا عامل ثراء و إضافة.

ساعات مع عرفات

1 - منذ الصّبا اِستمعتُ إلى أحاديث الرجال في تخوم الجنوب عندما كانوا يتذاكرون أخبار عدد كبير من المتطوعين التونسيين الذين قصدوا المشرق العربيّ للمشاركة في حرب فلسطين سنة1948 ولكنهم ظلوا مرابطين على الحدود لأن السّلطات في الحدود في ذلك الزّمن لم تسمح لهم بالمرور إلى المواجهات والجبهات!

بعضهم بقي هناك في مصر أو في ليبيا...بعضهم عاد يجرّ الأحزان والمرارة... وبعضهم اِنضم الى حركات المقاومة المسلحة التي اِنطلقت من جديد في أوائل الخمسينات في تونس والجزائر ومن بورسعيد إلى الأطلس.

- 2 في أوائل الستينات وبعد تحرير مدينة بنزرت اِلتقى

عـدد مـن الزعـماء العـرب في الذكـرى الأولى للجـلاء فكانـت مناسـبة تاريخيـة رائعـة جمعـت الحبيـب بورقيبـة وجمـال عبـد النـاصر وأحمـد بلّـة ووليّ العهـد الليبـي... أذكـر أنّي رافقـت والـدي ـ رحمـه اللـه ـ في تلـك المناسـبة إلى بنـزرت... في ذلـك اليـوم مـن سـنة 1963 رأيـت موكبهـم المهيـب يمـرّ بـين هتافـات الجماهـير المتحمّسـة للوحـدة وللأخـوة ولتحريـر فلسـطين أيضـا... لكـن هيهـات فقـد جـاءت السـنوات بالإنشـقاقات والخلافـات والإنقلابـات والنكبـات.

3 - بعـد حـرب1967 بدأنـا نسـمع بالمقاومـة الفلسـطينية وبعمليـات الفدائيـين وخاصـة بشـعراء الأرض المحتلـة وبقضيـة اللاجئـين وصـارت الكوفيـة الفلسـطينية ترمـز إلى النضـال والتحريـر مـن الإستعمار تمامـا مثـل جاكيتـة الـكاكي التـي كان ـ فـدال كاسـترو ـ و ـ غيفـارا ـ و ـ يـاسر عرفـات ـ يرتدونهـا وقـد بدأنـا نعـرف يـاسر عرفـات بعـد أن فتحـت المقاومـة الفلسـطينية مكتـب منظمـة التحريـر قـرب شـارع رومـا بتونـس العاصمـة.

4 - ياسر عرفات

كيـف إسـتطاع ياسر عرفـات أن يخترق ألسـنة اللهـب وأن يقفز على حقـول الألغـام وأن يطـوّع قضبـان الفـولاذ و يُلـيّن حيطـان الإسـمنت المسـلح ويجعـل فلسـطين علـما يرفـرف بـين أعـلام الأمـم والشـعوب؟! مـن معركـة الكرامـة إلى تـل الزعـتر ومن دير ياسـين إلى صبرا وشـاتيلا

ومـن أيلـول الأسـود في الأردن إلى إجتيـاح لبنـان ومـن حصـار بـيروت إلى قصـف حمّـام الشـط ومـن بحـر... إلى صحـراء ... إلى أفـق ومـن مطـار إلى ميناء سَـفَر عـلى سـفر... خطـر عـلى خطـر... كذلـك عـاش بـين الإحـتراق والغـرق!

5 - ياسر عرفات

المـرة الأولى التـي التقيتُـه كانـت في ـ دار الثقافـة إبـن خلـدون ـ بعـد نـزول عـدد كبـير مـن الفلسـطينيين في تونـس إثـر جلائهـم عـن بـيروت(1982) وكان ذلـك بمناسـبة إحـدى التظاهـرات الوطنيـة الفلسـطينية التـي كنـا كثـيرا مـا نشـارك فيهـا بإلقـاء القصائـد فلـم نلبـث وقتـا قصـيرا مـن إنطـلاق البرنامـج حتـى حـضر بيننـا الزعيـم يـاسر عرفـات مـع مرافقيـه وجلـس يُنصـت إلينـا عنـد آخـر القاعـة في الطابـق الأرضي ثـم ألقـى كلمـة حماسـيّة وغـادر المـكان عـلى عجـل بعـد ذلـك دون أن أصافحـه!

فكانت من أجمل ذكرياتي في تلك السنوات!

6 - ياسر عرفات

بمناسـبة ذكـرى رحيـل الشّـاعر مُعـين بسِيسُـو في أوائـل سـنة 1991 دُعيـت الى إحيـاء ذكـراه في منزلـه الكائـن وقتـذاك بشـارع إفريقيـا في المنـزه الرابـع أو الخامـس فحـضر عـددٌ مـن الأدبـاء ومـن أصدقـاء عائلـة الشـاعر الكبـير وبينـما نحـن كذلـك إذ بي أرى وجهـا لوجـه يـاسر عرفـات يدخـل مـن أحـد الأبـواب برفقـة الشّـهيد أبـو إيّـاد

وقد أصرّ على الحضور في هذه المناسبة تكريما لروح الشاعر مُعين بسيسو ومساندة أخوية لأرملته ووفاء للذكريات التي جمعت شملهم في سنوات الخمسينات في عهد الشّباب والدراسة والأسفار والنضال...

في تلك السّهرة الطويلة والمُمتعة عرفت أنّ ياسر عرفات إنسان يهوى الأدب ويحفظ الشّعر ويُقدّر الأدباء بالإضافة إلى عفويته وأصالة أخلاقه ولطف حديثه مع كل الحاضرين وقد نقلتْ إذاعة المنستير مباشرة فترات صوتية من تلك المناسبة أتمنى أنها مازالت مُسجَّلة في أرشيفها...ما أمتعها فترات.! ...

7 - ياسر عرفات

المرة الثالثة التي اِلتقيت فيها بياسر عرفات كانت بمناسبة تنظيمنا مؤتمر الأدباء العرب قبيل اِندلاع حرب الخليج واِجتياح الكويت بثلاثة أسابيع وقتها كانت العلاقات العربية الرسمية في مفترق الطرق بين الوفاق المستحيل والاِفتراق الذي كان لا ريب فيه وفي تلك الظروف الصّعبة اِستدعى اِتحاد الكتاب التونسيين مؤتمر الأدباء والشّعراء العرب وقد دُعي البعضُ منهم لتناول الغداء مع ياسر عرفات في مقرّ منظمة التحرير بخليج ـ قمّرت ـ قرب ضاحية المرسى فاِستقبلنا الزعيم الراحل في صالون فسيح الأرجاء وكنت برفقة الأديب الجليل محمد العروسي المطوي رئيس اِتحادنا ورئيس المؤتمر.

لقد تحدّث ياسر عرفات وقتها طويلا عن تلك الأزمة الخطيرة وعبّر عن أسفه من بلوغ الخلافات العربية تلك المرحلة الجارفة بالحدّ الأدنى من التضامن العربي وقال إنّ أول من يدفع ثمن تلك الأزمة هم الفلسطينيون غير أن السّحب المتلبدة حول ذلك المؤتمر وخلال ذلك اللقاء لم تحجب عنا ترحيب ياسر عرفات بنا فقد كان حريصا على ملاطفتنا على المائدة بنفسه وبمعيّة الشّاعر محمود درويش.

كم كنتُ سعيدا في تلك المناسبة فقد دعاني عرفات إلى الجلوس بينه وبين محمود درويش...ما أروعها لحظات! ...

8 - ياسر عرفات

كان من صِنف أولئك الزّعماء الذين يعرفون منزلة الكلمة وقيمة الأدباء لذلك قرّب إليه العدد الأكبر من المثقّفين الفلسطينيين والأدباء العرب بِاعتبارهم ذاكرة الأمة المحافظة على قيمتها الإنسانية الأصيلة الأدباء والمبدعون هُم الذين من الماضي يستلهمون وعن الحاضر يعبّرون وبالمستقبل يحلمون.

حوار مع الأديب عبد المجيد يوسف

عبد المجيد يوسف ـ الثقافة - في معناها الواسع - كائن تاريخيّ متغيّر كالماء» إن سال طاب و إن لم يسر لم يطب» ، تتعاقب فصولها وتتالى مراحلها... ينجزها نساء ورجال يؤثرون فيها بطابعهم و يوجهونها إلى ما يستشرفون من الأسمات و إلى ما يفتحون لها من الآفاق. فإذا كان التاريخ – كما شأنه في بلدنا – متسارع الخطوات لا يستقرّ إلا ليبيّت الرّحيل، يتعب بالإناخة والمقام، فإنّه من الضروري أن نستوقف الحاديَ لنسأله عمّا كان وعمّا يكون ما إن اِستقل بلدنا سنة1956 حتى بدأت عجلة الآداب تتسارع وتتشعّب تياراتها ويختلف القائمون عليها و يتصارعون و يتفقون و يتعايشون أو يقصي بعضهم بعضا فيخرج للناس مشهد متنوّع صاخب قويّ و يصبح للمدينة معالم ومزارات وأديرة للثقافة ومعابد، فهذا مقهى الكون ورواده من الأدباء اليساريين وهذه دار الثقافة ابن خلدون وروادها من المجدّدين الثوريين وتلك دار الثقافة ابن رشيق....وذلك الملحق الثقافي لجريدة العمل

وانتصاره للطليعيين وتلك مجلة الفكر للأدب الرّصين المحافظ أو للأدب المتمرد الطليعي يتجاوران ومن الضّروري أن تحاول مجلة أدبيّة مثل مجلة «المنتدى» أن تسعى إلى ربط عرى الاتصال بين الجيل الرّياديّ وبين الأجيال اللاحقة التي تبني حاضرها على ما أسّس الأسبقون وأن تلتقيَ أحد هؤلاء المؤسّسين لتسأله وتستوضحه وتثير الوعي لدى النّاشئة الأدبيّة بطبيعة الأرض التي يبنون عليها نصوصهم.

ـ سُوف عبيد ـ أو حسب بطاقة هويته سُوف الجين عبيد ومعناه بالأمازيغية 'النهر الكبير» هو من اِختارته المجلة لهذا الحوار. كاتب شاسع بإصداراته المتعدّدة ومعاصرته لأربعة أجيال من الكتّاب إذا ما اعتمدنا التّقسيم العشريّ للأجيال الأدبيّة المعتمد لدى أكثر النّقاد التونسيّين ومؤرّخي الأدب عندنا. فقد بدأ النّشر منذ 1970 معاصرا للطليعة الأدبية... وبهذا فهو بامتياز شاهد لا ريب فيه على مسار التحوّلات الأدبيّة الطّارئة على السّاحة الشّعريّة التّونسيّة.

عبد المجيد يوسف ـ من المراسم التقليدية في مثل هذه اللقاءات أن يتعرف القرّاء على الشّخصية المحاورة.

سُوف عبيد ـ هذا الاِسم الغريب الذي أحمله قد ورثته عن اِسم جدّي رحمه الله الذي تسمّى به في آخر القرن التاسع عشر تيمّنا بشخصية سُوف الجين المحمودي الشاعر والفارس

الليبي الذي ذاع صيته في تلك الفترة وهذا الاِسم يُختصر بسُوف فقط وهو أيضا اِسم منطقة ومدينة في جنوب الجزائر متاخمة للواحات التونسية وهو اِسم موضع في المديتة المنورة بالحجاز كما ورد في لسان العرب ومن الطرائف أنني زرت مدينة سُوف الواقعة بالقرب من العاصمة عمّان بالأردن سنة 1991 برفقة صديقي الشاعر يوسف رزوقة فكتبت إحدى الصحف وقتذاك مقالا تحت عنوان ـ سُوف في سُوف ـ

عبد المجيد يوسف ـ أنت أصيل الجنوب ولكنك أيضا من مواليد العاصمة وأهلك استقروا بالعاصمة من عهد بعيد فهل انقطعت صلتك بالجنوب؟ وأيّ دور للصحراء في تحفيز الخيال لديك ؟

سوف عبيد ـ إن الصلة بين أهل غمراسن والعاصمة تعود على الأقل إلى العهد الحفصي أي منذ الإمام اِبن عرفة فقد كان الأجداد يقضون فصل الخريف والشتاء في تونس العاصمة يعملون في دكاكين الفطائر والحلويات وأثناء فصلي الربيع والصيف يعودون إلى نجوعهم في البوادي وقد ولدت في ناحية بئر الكرمة من ضواحي مدينة غمراسن داخل غار منقور في الصخر وقد كان المسكن التقليدي الذي يتلاءم مع الطبيعة في تلك الربوع البدوية ومن هناك اِختزنت طبيعة الجنوب بما فيها من ألفة مع الطبيعة وبما نهلت من شِيم أهلها وقيمهم الأصيلة تلك التي اِمتزجت فيها النواحي الأمازيغية والعربية على مدى أجيال متعاقبة و إذا

كان جدّي الثاني أحمد بن عبيد أحد الفرسان العرب المشهورين بالغارات في غمراسن في عصره فإن جدّتي فاطمة سليلة الأمازيغ في ـ السّدرة ـ وهي من نواحي تطاوين وقد تغنّت إحدى الشاعرات الشعبيات في ذلك العصر بجدّي قائلة في مطلع بعض قصائدها كما رواها لي عمّي الأكبر احمَدْ بن عبيدْ سِيدِ الرجّالـــهْ فـــارسْ مشهورْ في الخيّالـــهْ لقد عشت سنوات طفولتي في ذلك الفضاء الرّحب الفسيح مُتماهيا مع الطبيعة حتى أنه إذا جُرحت قدمي الحافية من الحجارة كنت أملأ الجرح بصافي الرمل ريثما تضمّده أمّي بشيء من معجون الشّيح والعرعار... نعم لقد اِصطدت بمعية اِبن عمّي نجيب ـ ونحن لم نتجاوز العاشرة ـ الضّبّ والقُنفد وحتّى الثعابين وما ألذّها من شواء ؟ سافرت إلى العاصمة في الثالثة من عمري للتداوي من مرض الرمد ثم رجعت إلى بئر الكرمة ثم اِنتقلت في سنّ السادسة إلى ـ مقرين ـ وهي ضاحية جنوب العاصمة لأدخل المدرسة الاِبتدائية هناك فقضيت فيها سنتين رجعت بعدهما إلى غمراسن حيث درست سنتين أخريين في مدرستها الاِبتدائية وعدت بعد ذلك إلى العاصمة حيث أتممت التعليم الاِبتدائي بمدرسة نهج المغرب فكان من وقتها الاِستقرار النهائي مع العائلة بتونس العاصمة غادرت ربوع ـ بئر الكرمة ـ وغمراسن الجغرافيا لكني حملت فضاءهما الرّحب في شجوني وهو باد بوضوح في كثير من قصائدي.

عبد المجيد يوسف ـ هل لديك شعور ما بالغربة، في هذا الموطن أو ذاك؟

سوف عبيد ـ ينتابني الحنين إلى سنوات الطفولة في بادية غمراسن ونواحيها بما اِرتسم في مخيلتي من أخبار عصورها الغابرة وبما رسخ في ذاكرتي من أخبار وقائع تلك السنوات مثل واقعة حرب رمادة وحرب الجزائر وقد شدّني الشعراء الشعبيون وهم ينشدون في المحفل قصائدهم بإيقاعات تهزّ الوجدان ومن وقتها ربّما أحببت أن أكون مثلهم عندما اِنتقلت إلى ضاحية مقرين للدراسة عِشت مفارقة عجيبة فقد أذهلتني الحدائق الجميلة بشتى الزهور والورود وأشجار الثمار المتنوعة ناهيك عن المنازل ذات الطراز الإفرنجي وأذهلتني الطرقات والقطارات والوجوه النّضرة فلم أستطع التأقلم مع هذا المحيط الغريب بالإضافة إلى أنني كنت آوي إلى عائلة عمّي التي لم أكن أعرف منها أيّ شخص فعشت سنتين من الغربة الشديدة

عبد المجيد يوسف ـ هل أنت راض عن مسيرتك الأدبية، لا من حيث عدد الإصدارات فحسب، ولكن من حيث النّوع والأنماط... هل انتابك حنين إلى السّرد مثلا أو اعترتك رغبة في كتابة غير التي كتبت؟

سوف عبيد ـ ندمت أنني اِنقطعت عن الكتابة بالفرنسية التي كتبت بها بعض النصوص الشعرية تزامنا مع كتابتي بالعربية

فلقد كان يمكنني التواصل بها للتعريف بالأدب التونسي والعربي على الأقل وكنت أتمنى الكتابة باللهجة التونسية أيضا ولكني وجدت ذلك صعبا إذ لابد من الإحاطة بها وحذق مخزونها الثري للإضافة والتجديد أما السرد فقد كتبت بعض النصوص هي أقرب إلى لوحات من السيرة الذاتية تحت عنوان ـ بصمات وخطوات ـ بالإضافة إلى العديد من المقالات والدراسات وقد أردت من خلالها التعبير عن آرائي الأدبية التي ترمي إلى التعريف بمظاهر التجديد في الأدب التونسي خاصة.

عبد المجيد يوسف ـ الأرض عطشى كان مجموعك الأول صدر سنة 1980 يتواتر فيه معجم مفرداته مرجعها عناصر الطبيعة كالشمس والبحر والأرض والسّماوات والماء والقمر.... هل كان حضور هذه الظواهر في شعرك حضورا رمزيّا كونيّا (ربما ارتبط بالمدرسة التّموزية) أم كان هناك توجّه اشتراكيّ زراعيّ مرتبط بالواقع أكثر مما هو مرتبط بالرمز، يثير دور هذه العناصر في معاش الكادحين من الفلاحين وغيرهم تصاديا مع ما كان سائدا لدى من عاصرت من مدرسة الطليعة الأدبية أو حتى لدى شعراء مثل البيّاتي؟

سوف عبيد ـ كانت قصائد مجموعة ـ الأرض عطشى ـ مواصلة لمقولات الطليعة الأدبية التي نشأتُ في مقولاتها وخاصة تلك التي دعت إلى التجديد وعدم النسج على منوال الشعر التقليدي والرومنطيقي والحماسي من ناحيتيْ الفنيات والمضامين وكذلك

حاولت تجاوز حتى ما كان رائجا من الأنماط الشعرية السائدة في تلك الفترة مثل قصائد ما عُرف في تونس بموجة غير العمودي والحر التي سرعان ما خرجتُ عن تأثيرها وحاولت أيضا عدم تقليد ما كان سائدا من الشعر المشرقي لدى أعلام تلك السنوات وقد اِستفدت إلى حدّ بعيد من تراثنا العربي والتونسي بالإضافة إلى اِطلاعي المبكر على الشعر العالمي بفضل اللغة الفرنسية وقد كنت غير منسجم مع الشعارات الإديولوجية السائدة في تلك السنوات بالرغم أنني اِطلعت على مصادرها الأساسية وعلى الكثير من أدبيّاتها إذْ قرأت مثلا ماوتسيتونغ والمودودي وقُطب وميشال عفلق وغيرهم فقد كانت كلية الآداب بتونس زاخرة بمختلف الحركات الإديولوجية.

عبد المجيد يوسف ـ في ديوانيك امرأة الفسيفساء ونوارة الملح الصّادرين تباعا سنتي 1984 و 1985 تبدو كأنك انخرطت في التيار الوسط. لم تنخرط في اتجاه المنحى الواقعي أو في ما بقي منه بعد مؤتمر الشعر التونسي الحديث(الحمامات 1981) ولم تتوجه إلى المدرسة القيروانية إن صحّت تسميتها بالمدرسة... ما هي ملامح هذا التّيار الوسطي حسب رأيك؟

سوف عبيد ـ قصائد ذينك الديوانين تعبّر عن مرحلة مهمّة في البحث عن طريقي الخاص اِنطلاقا من أنّ الشعر التونسي يطمح أن يكون ذا إضافة نوعية إلى الشعر العربي المعاصر وليس تابعا أو ظلا له وأرى أن الشعر عامة يختلف عن أسلوب البيانات

السياسية أو النقابية أو الخطب الأخلاقية فالشعر تعبير فنّي عن الحالة والوجدان ضمن مسار تحرّري إنساني وقد أثبت التاريخ صحّة توجّه الجماعة الثالثة التي اِنبثقت من ملتقى الحمامات والتي كنت أحد عناصرها فقد اِنهار جدار برلين وتشتّت الاِتحاد السوفياتي وسلكت الصّين نهج التحرر الاقتصادي ولاقت كثير من البلدان العربية ذات التوجه العروبي ويلات الحكم الفردي والتدخل الأجنبي والاِنقسام الداخلي وجميع ذلك كان بسبب تسلط الراي الواحد والحزب الواحد.

عبد المجيد يوسفـ هل ترى أنّ هذا التيار تواصل و إلى أيّ حدّ... خاصة وأنك وضعت دراسة حول حركات الشعر الجديد بتونس (2008) وقد توفّر لديك الزّمن الكافي للتراجع والمشاهدة البانورامية للمشهد الشعري؟

سوف عبيد ـ قد تطوّرت أغلب الأصوات داخل هذا التيار وفي غيره وقد جاءت أصوات جديدة لذلك من الجدير أن نقرأ المدونة الشعرية التونسية بكل أناة شاعرا شاعرا حتى نقف على أوجه الاِئتلاف والاِختلاف والتميز بين هذا وذاك.

عبد المجيد يوسفـ كان بودّي ان أسترسل معك في استعراض دواوينك واستجلاء كل ديوان على حدة لو سمحت المساحة لذلك أمرّ إلى حارق البحر. ماذا تغير في شعرك بين هذا الديوان وما قبله؟

سوف عبيد ـ قد أهديته إلى روح والدي رحمه الله وضمّنته بعض القصائد الحميمة التي فيها بعض ملامح سيرتي الذاتية وانا لا أخطط لصدور دواويني ولا لكتابة قصائدي فشعري هو ظلال حياتي ولكني أحاول أن لا أكرّر نفس القصائد لذلك أمسيت متشدّدا أكثر في السنوات الأخيرة.

عبد المجيد يوسفـ لغة سوف عبيد الشعرية لها ملمح خاص... بسيطة إلى أبعد حدّ ولكنها فصيحة لا تختلط بالعامية إلا في نصوص محدودة سوف نذكرها. هل يصح القول إنك المهلهل... هلهلت لغة الشعر التونسي؟ من أين تستمد هذه اللغة شعريتها؟

سوف عبيد ـ تلك هي الفصاحة المنشودة هي أن أستعمل مفردات مفهومة ولكن ذات نسق خاص و مدلولات عميقة فالبساطة لا تعني السطحية الجوفاء فانظرْ مثلا لوحة غرنيكا لبيكاسو هي مجرد أشكال بسيطة من حيوانات وأدوات وبلونين فقط هما الأسود والأبيض ولكنها ثرية بالمعاني وكذلك أُنظر إلى أفلام شارلي شابلان على بساطتها وبرغم صمتها وقِدم صُورها فإنها على غاية من الإبداع.

عبد المجيد يوسفـ لسوف عبيد الأديب وجه آخر غير وجه الشّاعر، ذلك أن لديك إنتاجا ادبيا في غير الشعر.

سوف عبيد ـ نعم فقد صدر لي كتاب ـ حركات الشّعر الجديد في تونس سنة 2008 وكتاب ـ صفحات من كتاب الوجود

ـ لأبي القاسم الشابي سنة 2009 ولي عديد المقالات المنشورة في الصحف والمجلات أرجو أن أجمعها في كتاب أو كتابين.

عبد المجيد يوسفـ كتاب صفحات من كتاب الوجود. ما حقيقته؟

سوف عبيد ـ يمكن ان نعتبره الديوان الثاني للشابي بعد أغاني الحياة وعنوان ـ صفحات من كتاب الوجود ـ هو من اِقتراح الشابي نفسه فقد ذكره في الرسالة الثالثة التي أرسلها إلى صديقه محمد الحليوي ولم يتسنّ للشاعر أن يجمعها وأن يصدرها في حياته فظلّت مبثوثة في مصادر مختلفة وقد توصّلت إليها بعد أن اِطلعت على ما قرأته من آثار الشابي فوجدتها منشورة مع غيرها من مختلف نصوصه الأخرى في غير ديوانه أغاني الحياة وقد أشار إلى بعضها دارسون مختصون مثل أبي القاسم محمد كرّو وتوفيق بكار وأبو زيان السعدي إن الاِختلاف في تسميات هذه النصوص وتصنيفاتها يعود إلى عدم اِستقرار المصطلح لهذا النوع من الشعر الذي بدأ في الظهور مع بداية القرن العشرين وهو ما زال إلى اليوم في طور الإنشاء والتنوع من شاعر إلى آخر ومن بلد إلى أخر ومن فترة إلى أخرى لذلك فإن التسمية والإجماع عليها تتطلب مدّة زمنية أطول وقد اِقترحت هذه التسمية التي تتضمن الإقرار بأنها من نوع ـ الشعر النثري ـ كجنس أدبي فهي إذن قصائد نثرية بالرغم من أنّ تقسيم الشعر بالاِعتماد على الشكل فحسب غير مقنع.

ويرى قسم آخر من الذين أنكروا هذه القصائد أنه كان يجب أن أنشرها مثلما وجدتها في مصادرها تماما والحال أنّني حاولت قدر الإمكان أن أخرجها في طبعة لائقة بها من حيث توزيع الأسطر والصفحات مستأنسا بنسق كثير من أجزائها الأصلية لتكون في متناول القارئ إنّ المسألة في نهاية الأمر تكمن في أنّ هؤلاء وأولئك يرون أنّ قصيدة النثر أو قصيد النثر ذات أصل مشرقي أو ذات أصل غربي ولا يريدون أن تكون لتونس ولأدبائها فضل الاِبتكار أو الإضافة أوالسّبق...مع الأسف لدى البعض منهم عقدة المشرق الأزلية ولدى الآخرين شعور الاستنقاص أمام الغرب والحال أن الأدب منذ عصور سابقة ماهو إلا نتيجة لتلاقح الثقافات قديمها وحديثها فأصول قصيدة النثر يمكن أن نقراها في اللغة العربية ضمن كثير من النصوص القديمة أيضا ونحن الآن قادمون على مرحلة تجاوز الحدود بين مختلف الأجناس وكذلك نحن على عتبات مرحلة تداخل الأجناس والفنون أيضا...فحدود الشّكل وحدها ليست مقياسا مضبوطا أو معيارا كافيا للجمالية وللسّمات الأدبية للنصّ.

عبد المجيد يوسفـ في دراستك لشعر الشابي النثري اِهتممت بالمضامين في ما أردت أن تقنع به بأنه قصائد نثرية ولم تركّز على فنيات القصيد النثري ... كان المنتظر أن يجد القارئ ما يخالف أنّ هذه القصائد هي كلام منثور تصرّف الشاعر في توزيعه فجل

كل جملة في سطر.

سوف عبيد ـ إن الغرض من نشر هذه القصائد هو التعريف بها وذكر مصادرها وهي التي ظلت مجهولة ومطموسة سنوات طويلة وقد حاولت التمهيد لكل قصيدة بما يناسبها من التقديم ولم يكن هدفي البتة دراستها وعسى أن تنهض العزائم لذلك... وقد كانت منشورة بدون أيّ إعتبار لجماليتها الفنية وعندما رجعت إلى بعض المسودات والمخطوطات لدى الشابي لاحظت أنه كتب الكثير من الأسطر منها كما نشرتُها فإتبعتُ نفس المنهج الذي أراده الشاعر.

عبد المجيد يوسف ـ ما هي علاقتك بإبن عرفة؟ هل كان الدّافع الجهوي هو ما حفّزك على تحقيق تفسيره؟

سوف عبيد ـ كان والدي رحمه الله مُحبّا لإبن عرفة ويرى فيه العالم المستقل الذي وهب حياته للعلم والتعليم فكان مثالا لي منذ طفولتي وعندما درسني الدكتور سعد غراب المختص في إبن عرفة إقترح عليّ تحقيق جزء من تفسيره ضمن مجموعة من طلبته فلبّيت بكل مهجتي وكانت مناسبة للتعمق في التراث وإكتشافه.

عبد المجيد يوسف ـ أيّ دور كان له في ترسيخ الخصائص المقاصدية للفقه المالكي؟

سوف عبيد ـ من أهمّ خصائص الإمام ابن عرفة في تفسيره

أنه يعتمد على العقل من ناحية وعلى الشرح اللغوي الدقيق من ناحية أخرى وهو يرى بضرورة إعتبار الواقع عند قراءة النصوص الدينية كي تتلاءم مع أحوال الناس فهو يقول ـ إن الوقوف على ظاهر النصوص من دون النظر إلى الزمان والمكان هو ضلال وتضليل ـ لذلك كثيرا ما إستشهد بآرائه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في غضون تفسيره التحرير والتنوير.

عبد المجيد يوسف ـ لديك نصّ مطوّل يحتوي على تركيبة فريدة فقد مزجت فيه بين النص النثري والنص الموزون على الأوزان الخليلية والشعر العامي هو نص الجازية الذي لا يذكر سوف عبيد إلا ذكر... لو حدثتنا عن هذه التجربة؟

سوف عبيد ـ قصيدة الجازية أعتبرها من أهمّ قصائدي فقد حاولت فيها الإستفادة من الملحمة الشعبية ومن التراث الشفوي بما فيه من أمثلة وحكم وأغان وأشعار بالإضافة إلى مختلف أشكال الشعر الفصيح وذلك للتأكيد على أن التجديد ممكن دائما وأن النص الشعري بوسعه أن يشمل شتى أنواع الكتابة لأعانق بهذه القصيدة أرحب فضاء ممكن أما من ناحية المضمون فقصيدة الجازية تتجاوز النظريات الإديولوجية المحلية والقومية الضيقة لتنفتح على الإنسانية جمعاء مهما تباعدت الأوطان.

عبد المجيد يوسف ـ أنت من مؤسسي قصيدة النثر في تونس ولكنك في فترة ما أظنها بداية التسعينات انخرطت في حركة

«الهرولة» نحو القصيد العمودي التقليدي مع ثلة من الشعراء أصحاب قصيد النثر...هل تعتبر ذلك تراجعا عن القناعات السابقة أم كان هناك حافز من نوع سياسي-ثقافي..... ما تقييمك لهذه العودة ؟

سوف عبيد ـ في الواقع قد سبقني بعض الشعراء في تونس إلى كتابة قصيد النثر مثل محمد أبو القاسم كرّو ومحمود التونسي ومحمد مصمولي وصالح القرمادي وحتى نور الدين صمود ـ في ـ ألوان جديدة ـ وكذلك شعراء جماعة غير العمودي والحرّ وغيرهم وقد حاولت أن أواصل هذا المسار التجديدي ضمن كوكبة من الشعراء من بينهم محمد رضا الكافي وخالد النجار ومحمد أحمد القابسي وعزوز الجملي وعزيز الوسلاتي وآخرون لكن بعد هذه الموجة جاءت أصوات عديدة اِستسهلت خوض غمار هذا النوع الجديد من الشعر فاِختلط الحابل بالنابل هذا من ناحية من ناحية أخرى أردت أن أكتب في الشكل القديم باِعتبار أنه إحياء وعود على بدء وتمسك بالذات والجذور وتأكيد على أن الشعر لا يُحدّ بشكل وحيد وأنه يمكنني الكتابة في كل الأشكال الشعرية إذا ما تطلب المضمون ذلك وينبغي أن أصرّح أيضا أن كتابتي في الشعر الموزون المقفّى هي دعوة ضمنية إلى أنّ التجديد لا يتنافى مع القديم بل تطور منه واِستمرار له فالشعر أوسع من الأشكال التي لا يمكنها وحدها تحديد نوعه وكنهه تلك جدلية الحياة...الزمن وحده كفيل بالغربلة.

عبد المجيد يوسف: نترك لك كلاما حرّا تتوجه به إلى قرّاء ـ المنتدى ـ

سوف عبيد ـ شكرا على هذه المحاورة الجديّة ـ وأعتبر قصائدي هي لسان حالي المُفصح عن مختلف المراحل والأطوار في مسيرتي فهي المرجع الأوّل.

الفـــهـــرس

الأرض عطشى

البدء..... 11
الشّمس على جبيني..... 12
الحذاء..... 13
رُؤيا..... 13
المِسرحَة..... 13
الضِدّ..... 14
جنيّةُ الرّيح..... 14
سِنْفُونيّة 15
العصافيرُ والماء..... 15
الطفلُ والسّمَكةُ 16
عُصفُورة..... 16
بابُ الجنّة..... 16
صَبيّة 17
لا شيءَ يَستحِقُّ الذّكرَ..... 17
زرقاءُ اليَمامة إلى أمل دنقل..... 17
الحصانُ الأبيضُ..... 17
الرّايةُ..... 18
المجيءُ في اللّيل..... 18
عِناق..... 19
النّيل..... 19
هناك..... 19

نوّارة الملح

أجمل البنات..... 23
الجَسَدُ..... 23
الجِسرُ..... 24
الزّورقُ أكبرُ من البحر..... 25
الشّهرُ التاسع..... 28
الضّفائر..... 32
الطّين..... 32
الغار..... 33
المقهى..... 34
النّملةُ..... 34
ذُو الجَناحَيْن..... 34
خُيول الإفرنج 35
التفاحة..... 39

اِمرأةُ الفُسَيفُساءِ

أحوالُ يُوسُفِ اليَقْظان..... 43
النّخلة..... 45
الأرض 47
البُرتقالة..... 48
البَرَكةُ 48
الجَنُوب 48
الشّتاء 49
الكرسيّ 49
أناقة 50
أنامل الزّهر 50
اِنتظار 50
اِنطلاقة 51
حُوريّة 51
رَجُل 52
سَنةٌ أولى بيروت 52
سهرة 54
طيُور اللّيل 54
غياب 54
فراق 55

صديد الرّوح

1ـ آخرُ أحفادِ البَدْوِ 59
الإبرةُ آخر 59
الأشياءُ..... 59
اِبتهال..... 60
اِحتراقٌ..... 60
عُبور..... 60
أسماء..... 60
الأحمرُ على الأبيض..... 61
المِروحةُ..... 61
اِستراحةٌ..... 61
أقزام..... 62
الإمبراطور..... 62
البَدوُ..... 62
البُرنُسُ 63
البريد..... 64
البِنَاءُ..... 64
البَهلوان 64
التّمثالُ والخليجُ..... 65
الجُرح..... 66
القطار..... 67
الجَملُ..... 67
الحَبْلُ..... 68
باقةُ وردٍ 68
الحبيبُ المَوْصُولُ..... 68
الحسابُ..... 68
خِزانةُ الفُندُقِ..... 69
الدّرسُ..... 69

الرّأسُ..... 69
الرّسالةُ 70
الرّيحُ 70
2ـ السّماء التي تحتنا..... 71
البَوصلةُ 71
الرّحَى 71
السّيجارةُ 71
السّيفُ 72
الشّطرنجُ 72
مَعَ أوْ بِلاَ 73
الصَّبيُّ 74
العصافيرُ 74
العنوان 75
الفارسُ الصّغيرُ 75
الفُصول 76
القامُوسُ 76
القِطارُ 76
الكراسِي المقلوبةُ 76
الكلمةُ النّاقصةُ 77
أزهَار 77
المِرودُ 77
المِقبرةُ 77
ربّمَا 78
اِستعراض 78
العَسلُ..... 78
المَوعدُ 79
النّارْجِيلَةُ 79
النُّقطة 80
الوردةُ 80
أُمُّ الرّبيع 81
زَمنُ الأزمِنةِ 81
الدّجاجةُ والبَيضةُ..... 85
إنْصاتٌ 85
أوراق 86
أولادُ الحَلال 86
بَراءَةٌ 87
دُعاء 87
3ـ بسمةٌ على فم الميّت..... 88
الصَّباحُ الجديدُ 88
بَيرُوتُ..... 89
تَهنِئةٌ 89
جَدّتِي 89
حديثُ الفتَى 90
حَصادٌ 91
حَفلُ اِستِقبالٍ 91
رِبَاطُ العُنُقِ 91
زَهرةُ اللّوْز 91
سِباقٌ 92

سَبْقُ لِسَانٍ 92
سَعادةٌ 92
شَهرزادُ 93
شَهريارُ 93
صالح القَرمَادي 93
عارضةُ الأزياءِ 94
عَروسُ البَحر 94
عَصافيرُ الجنّةِ 94
عيُون 95
غاسلُ الموتَى 95
غَرنَاطةُ 95
فَصْلُ العَيْنِ 96
قَرطاجُ 96
قَولُ قُزَحٍ 96
كابُوسٌ 97
مُحمّد البَقْلوطِي 98
مُقابَلةٌ 99
وردةُ الرَّملِ 99
لُزُومُ ما يَلزِمَ 100

جناحٌ خارجَ السِّرب

الورقةُ 103
الأبيضُ والأسودُ 103
الأربَعُونَ 103
الأسبُوعُ 104
البابُ القديمُ 104
التّاجُ 104
الثلاّجةُ 104
الجَزيرةُ 105
الحُسينُ 105
الحَفلُ 105
الدَّلوُ 105
الدُّميةُ 106
الذّئبُ 106
الرّحيلُ 106
الزّيارةُ 106
السّماءُ السّابعةُ 107
السّمكةُ 107
الشَّجرةُ 108
الماءُ والنّارُ 108
المَحطّةُ 109
المِحفَظةُ 109
الهَاتفُ 109
آيةُ الكرسيّ 109
بَرقيّةٌ 110

تَفْتيشٌ 110
ثُلاثيّةُ عبدِ اللهِ 110
حِصانُ الطّين 111
زُجاجُ الرُّكنِ 112
ظلالُ الرُّوح 113
فاتحةٌ لزمَنٍ جَديد 114

نَبعٌ واحدٌ لضِفافٍ شَتّى

الأشياءُ 117
الجِسْرُ 118
إبداعٌ 118
الزّيتُونةُ 118
الصّيّادُ وحُوريّةُ البَحر 120
الطائرةُ الوَرقيّةُ 120
العَاشِقُ المُتَجوِّل 121
العَصَا 122
القِطارُ 122
اللّؤلؤةُ 123
اللّيلةُ القَمراءُ 123
المَتْنُ والحاشيةُ 123
المِدفَأةُ 124
المِرآةُ 124
المُصافَحةُ 125
المقهى القديم المقهى الجديد 125
النافذة 126
ألوانٌ 126
اليومُ الثامنُ 127
اِمرأةُ الفُصول 127
بالدّمِ الأزرقِ 128
رادسُ 128
شَهْرزادُ 130
مدينةُ الألعابِ 132

عُمْرٌ واحدٌ لا يَكفي

نَسيجُ الألوان 137
الطّيُورُ 138
أبُو سَعديّة 139
البُرتُقالةُ والسكّينُ 142
التّاجُ 143
الرّاعِي والأميرةُ 143
الشَّجرةُ 144
الشّيءُ بِالشّيءِ يُذكَرُ 144
العَرُوسُ 144
القَرنفُلةُ 145

القَفصُ الذهبيُّ 147
المَهدِيُّ الّذِي يَنتَظِرُ 147
الميناءُ 150
النّارُ 150
الوُصُولُ المُستَحِيلُ 150
بَعدَ هَجْرٍ 152
تَباركتِ الأرضُ 152
ثرثَرةُ المُتقاعدِ 153
جَنِينٌ 154
حَتّى 155
رسالةٌ 155
وجهًا لوجهٍ 155
مِنْ كتابِ الحَيوانِ 156

الجازية 157

حارقُ البحر

الفَاتحةُ 173
اَلثّمَانُونَ وَعَامٌ 173
الخِزانَةُ 174
تَطَاوِينُ 175
اَلصّورةُ القديمةُ 176
اَلخَمْسُونَ 177
اَلزّوْرَقُ اَلْوَرَقِيُّ 181
اَلْعُبُورُ 184
حارسُ المَنار 187
القَلمُ الذّهَبِيُّ 188
عَروسُ البَحرِ 188
الجَناح 191
المَدينةُ الجَديدةُ 191
رَجُلُ الأمطَار 191
أمام المرآة 191
حُلمٌ 192
العِيدُ 192
مِنْ كتابِ الحَيوانِ 192
اللّذُونَ 193
إن مع اليُسر يُسرا 193
بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ 193
خطّ الوُصول 194
كامِيكازْ 194
الطّريقُ 194
الوداعُ 194
رَحْمَةَ اَلْوَالِدِينْ 194
اَلْقَصِيدَةُ اَلْمُنَوَّرَةُ 197

عاليًا...بعيدًا

يَسألونك عن الثّورة... قُلْ 203
تُونسُ الآن وهُنا 204
سِيدي بُوزيد 205
مِفتاحٌ 207
زَغاريدُ الجَنازةِ 208
الطاحُونةُ 210
رَمضانُ أبي 212
الوداع 212
كُراتُ الشّمس 214
المحفظةُ 214
غُمْراسِنُ 215
وائـــل 218
الأغنية اليتيمة 219
النّص الأصليّ للأغنية 223
الكمنجة 224
فِي بلادِ اليَاقْ يَاقْ 225
الأحمرُ والأبيضُ 226
حسناءُ البُحيرة 227
العاشقُ الأخيرُ 227
الوردة والشكلاطة 228
مقام الوجد 228
الشّجرةُ الدّامعةُ 229
البُحيرة 230
شَبَقُ اَلْوَرْد 230
السّلَمُون 231
وراء الشّمس 231
العنكبوت 231
في الحفل 232
زهرةُ التُّوليب 232
أبجديّة 232
الكروان 232
السّلحفاة والغزالة 235

واحدان

واحدان 239
زهراتُ المَرْمَر 239
الشّاي 240
حمامة 240
الشّجرةُ وورقاتُها 240
وليمةُ النّمل 240
سَمكةُ البَرّ 240
روايةٌ أخرى للتفّاحة 241
السّيجارةُ 241

سَفَرٌ 242
الدّيناصورات 242
بلا وداع 242
بائعُ الرّصيف 242
وإذا الزربيّةُ سُئلت 242
لعبةُ المِرآة 243
الفُرشاةُ 243
آخرُ الأغبياءِ 243
محطّةُ الأشجار 244
الأدغال 244
الشّرفةُ 244
ماري 248
بُونْجُور بَاريس 249
بالأحمر على الأبيض المتوسط 252
سيدي رزيق 253
باريسيّات 254
الفاتحة 258
حُروفُ اللمس 258
القطار الأخير 260
صباحُ صيفِ المدينة العتيقةِ 261
من وصايا الفارس القديم 261
شهرزاد الثانية 262
المُهرة 263
الفنجان 263
شَهدةٌ 264
الفُستان 264
صورة 265
من العتيق 265
العمارة 265
كانون 265
حوار 266
على الجمر 266
عَطاء 266
الواجهةُ 266
أصَابعُ وأَرْجُلٌ 267
الوِشَاحُ 267
فَارسةٌ 268
واحدٌ إثنان 268
يَومٌ بَاردٌ جِدّا 269
تقاطع 269
عَيْنُ اَلْحَجَرِ 269
المِشكاة 270

القطار الذي فات...
بصماتٌ وخطواتٌ من سيرة ذاتية

بئر الكرمة 275
ليلة السّفر 277
رحماك يا أُميمة ! 277
سيدي رزيق 279
صلاة العيد 282
المليحةُ العذراء 285
الرّصاصةُ الطائشة 288
مجالسُ الأنس 291
الهوى الأوّل 297
مكتبة العطارين ! 299
الهوى الثّاني 302
السّردين والشّكلاطة 305
البحر سماء 310
لا ملائكة... ولا شياطين 313
في بلاد الإفرنج 315
الكُسكسي 317
الصّندوق العجيب 320
العزيزُ ابنُ الأعزّ 322
الشّمس والقمر 326
في الكنيسة 331
ذاتَ عصر...ذاتَ ربيع 332
الدّرس الأخير 337
دمُ الكلام 339
دمشق 343
ساعات مع عرفات 347

حوار مع الأديب عبد المجيد يوسف 353

المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

22، نهج المقاولين – المنطقة الصناعية الشرقية – أريانة – تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ – الفاكس : 975 838 70 216+